الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد البشير الإبراهيمي – برج بوعريريج
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

ميدان: العلوم الاجتماعية والإنسانية

قسم: التاريخ

تخـــصص: تاريخ المقاومة والحركة الوطنية الجزائرية (1830-1954)

رقم التسجيل: .....

الرقم التسلسلي: .....

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في تخصص تاريخ المقاومة والحركة الوطنية الجزائرية (1830-1954)

جرائم الاستعمار الفرنسي خلال المقاومات الشعبية ثورة الزعاطشة والاغواط نموذجا (1849 – 1854)

إعداد:
- بلهوشات عماد الدين
- بارة فوزي

إشراف:
- د. جبري عمر

نوقشت بتاريخ: ../2026/06 أمام اللجنة المتكونة من السادة

د. بن سعدي سمير	**جامعة محمد البشير الإبراهيمي – برج بوعريريج**	**رئيسا**
د. جبري عمر	**جامعة محمد البشير الإبراهيمي – برج بوعريريج**	**مشرفا ومقررا**
د. زيتوني حمزة اسحاق	**جامعة محمد البشير الإبراهيمي – برج بوعريريج**	**ممتحنا**

السنة الجامعية: 2025 / 2026

﴿يَرْفَعِ اللهُ الذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾

[سورة المجادلة: الآية 11]

الحمد لله رب العالمين، الذي وفقنا وأعاننا على إنجاز هذه المذكرة وإتمامها.

نتقدم بخالص الشكر والتقدير والامتنان إلى جميع الأساتذة الأفاضل الذين أشرفوا على تكويننا العلمي والأكاديمي طوال سنوات الدراسة، لما بذلوه من جهود كبيرة في تعليمنا وتوجيهنا وإرشادنا.

كما نتوجه بجزيل الشكر إلى الأستاذ المشرف الدكتور جبري عمر على هذه المذكرة، على ما قدمه من نصائح قيمة ومتابعة مستمرة وتوجيهات علمية ساهمت في إنجاز هذا العمل بالشكل المطلوب.

ولا يفوتنا أن نتقدم بالشكر إلى أعضاء لجنة المناقشة الموقرة لتفضلهم بقراءة هذه المذكرة وتقييمها وإثرائها بملاحظاتهم العلمية القيمة.

كما نشكر كل أساتذة القسم وإدارة الكلية، وكل من قدم لنا يد العون والمساعدة من قريب أو بعيد.

وفي الأخير، نسأل الله تعالى أن يجزي الجميع خير الجزاء، وأن يجعل ما قدموه في ميزان حسناتهم.

والله ولي التوفيق.

من قال انا لها نالها

وانا لها ان ابت رغما عنها اتيت بها.

لم تكن الرحلة قصيرة ولا ينبغي لها ان تكون لم يكن الحلم قريبا ولا الطريق كان محفوفا بالتسهيلات

لكني فعلتها.

الى الذي زين اسمي بأجمل الألقاب، من دعمني بلا حدود واعطاني بلا مقابل...

من علمني ان الدنيا كفاح وسلاحه العلم والمعرفة داعمي الأول في مسيرتي

وسندي وقوتي وملاذي بعد الله...

...ابي...

الى من جعل الله الجنة تحت اقدامها واحتضنني قلبها قبل يدها وسهلت لي الشدائد بدعائها الى القلب الحنون والشمعة التي كانت لي في الليالي المظلمات سر قوتي ونجاحي

...امي...

الى ضلعي الثابت وامان ايامي

الى من شددت عضدي بهم فكانوا لي ينابيع ارتوي منها الى خيرة ايامي وصفتها الى قرة عيني

...اختي اخواتي...

لكل من كان عونا وسندا في هذا الطريق للأصدقاء الاوفياء ورفقاء السنين

...لأصحاب الشدائد والأزمات...

اهديكم هذا الإنجاز وثمرة نجاحي الذي لطالما تمنيته

ها انا اليوم أكملت واتممت اول ثمراته بفضله سبحانه وتعالى

فالحمد لله على ما وهبني

ط:	طبعة
تر:	ترجمة
ع:	عدد
ج:	جزء
تح:	تحقيق

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز طبيعة المقاومات الشعبية الجزائرية التي اندلعت في مواجهة الاحتلال الفرنسي خلال الفترة الممتدة من سنة 1830 إلى سنة 1916، مع التعريف بأهم الثورات والانتفاضات التي شهدتها مختلف مناطق الجزائر، وتحليل خصائصها وأسباب استمرارها، إضافة إلى الوقوف على العوامل التي حالت دون تحقيق أهدافها في طرد الاحتلال واستعادة السيادة الوطنية. وقد اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي من خلال جمع المعطيات التاريخية ومقارنتها وتحليلها بالاستناد إلى المصادر والمراجع المتخصصة.

وتوصلت الدراسة إلى أن المقاومات الشعبية مثلت تعبيراً صادقاً عن رفض الشعب الجزائري للوجود الاستعماري، واستندت إلى مقومات دينية ووطنية ساهمت في استمراريتها وانتشارها عبر مختلف مناطق البلاد. كما بينت الدراسة أن هذه المقاومات تميزت بالطابع الشعبي والاعتماد على القيادة المحلية والمرجعية الدينية، إلا أنها واجهت تحديات عديدة تمثلت في التفوق العسكري الفرنسي، والسياسات الاستعمارية القمعية، والخيانات الداخلية، والطابع المحلي المحدود للثورات، فضلاً عن غياب الدعم الخارجي الفعال. ورغم عدم تمكنها من تحقيق الاستقلال، فقد أسهمت في الحفاظ على الشخصية الوطنية الجزائرية ومهدت الطريق لنشوء الحركة الوطنية ثم اندلاع الثورة التحريرية الكبرى سنة 1954.

الكلمات المفتاحية :المقاومة الشعبية، الاحتلال الفرنسي، الجزائر، القرن التاسع عشر، الثورات الشعبية، الحركة الوطنية.

This study aims to examine the nature of the Algerian popular resistance movements that emerged against French colonial occupation between 1830 and 1916. It highlights the major revolts and uprisings that took place across different regions of Algeria, analyzes their characteristics and causes of continuity, and investigates the factors that prevented them from achieving their ultimate objective of ending colonial rule and restoring national sovereignty. The research adopts a historical and analytical approach based on the collection, examination, and interpretation of historical data from specialized sources and references.

The study concludes that popular resistance movements represented a genuine expression of the Algerian people's rejection of colonial domination. These movements were rooted in religious and national values that contributed to their persistence and geographical expansion throughout the country. The findings also reveal that these resistances were characterized by their popular nature, local leadership, and strong religious legitimacy. However, they faced several obstacles, including French military superiority, repressive colonial policies, internal divisions and betrayals, the regional limitation of many uprisings, and the absence of effective external support. Although these movements failed to achieve immediate independence, they played a crucial role in preserving Algerian national identity and paved the way for the emergence of the national movement and, eventually, the Algerian War of Independence in 1954.

Keywords: Popular Resistance, French Colonialism, Algeria, Nineteenth Century, Popular Revolts, National Movement.

فهرس المحتويات

الرقم	الموضوع	الصفحة
1	الآية	
2	شكر وتقدير.....	أ
3	الإهداء	ب
4	الملخص باللغة العربية	ج
5	الملخص باللغة الإنجليزية	د
6	فهرس المحتويات	ه
	مقدمة	
1	التعريف بالموضوع	01
2	الاشكالية الرئيسية والاشكاليات الفرعية	02
3	دوافع اختيار الموضوع	02
4	أهداف الدراسة	03
5	المنهج المتبع	03
6	الدراسات السابقة	03
7	خطة البحث	05
8	نقد المصادر والمراجع	06
9	الصعوبات	06
	الفصل الأول: الإطار العام للمقاومات الشعبية	
أولا	مفهوم المقاومات الشعبية	08
ثانيا	أهم المقاومات الشعبية	10
ثالثا	خصائص المقاومات الشعبية	17
رابعا	أسباب فشل المقاومات الشعبية	19
	الفصل الثاني: جرائم الإستعمار في ثورة الزعاطشة	
أولا	أسباب الثورة وقيادتها	38
ثانيا	مجريات الثورة والحصار	41
ثالثا	مجزرة الزعاطشة 26 نوفمبر 1849	42
رابعا	مظاهر الجرائم الإستعمارية (قطع الرؤوس وسياسة الأرض المحروقة)	46
	الفصل الثالث: جرائم الإستعمار في مقاومة الأغواط	
أولا	أسباب مقاومة الأغواط	52

ثانيا	أحداث المقاومة	57
ثالثا	مجزرة الأغواط	57
رابعا	نتائج الجرائم الإستعمارية	62
الفصل الرابع: الأبعاد التاريخية والوطنية لجرائم الاستعمار الفرنسي		
أولا	أهداف السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجنوب الجزائري	68
ثانيا	انعكاسات الجرائم الاستعمارية على المجتمع الجزائري.	69
ثالثا	أثر المقاومات الشعبية في تنمية الوعي الوطني.	72
رابعا	مكانة مقاومتي الزعاطشة والأغواط في التاريخ الجزائري.	75
خاتمة		80
الملاحق		84
قائمة المصادر والمراجع		95

مقدمة

مقدمة

يُعدّ الموقع الاستراتيجي للجزائر، بإطلالته على البحر الأبيض المتوسط وامتداده نحو عمق إفريقيا، من أهم العوامل التي جعلته محطّ أطماع القوى الأوروبية، وعلى رأسها فرنسا التي سعت إلى بسط نفوذها والسيطرة على خيرات البلاد. وقد اتخذت حادثة المروحة سنة 1827 ذريعة لشنّ غزوها العسكري، الذي تُوّج باحتلال الجزائر سنة 1830، لتدخل البلاد مرحلة من المقاومة المستمرة ضدّ الوجود الاستعماري.

وقد واجه الشعب الجزائري هذا الاحتلال بسلسلة من المقاومات الشعبية التي تميّزت بالتنوع والاستمرارية، حيث لم تقتصر على منطقة دون أخرى، بل شملت مختلف أنحاء الوطن، من الشمال إلى الجنوب. ومن أبرز هذه المقاومات، مقاومة الزعاطشة سنة 1849 بقيادة الشيخ بوزيان، التي مثّلت نموذجاً فريداً للصمود والتحدي في وجه القوات الفرنسية، رغم الفارق الكبير في العتاد والعدد. كما تلتها مقاومة الأغواط سنة 1852، التي شهدت واحدة من أبشع المجازر التي ارتكبها الاستعمار الفرنسي في الجنوب الجزائري، حيث استخدم مختلف أساليب القمع والإبادة لإخماد روح المقاومة.

التعريف بالموضوع:

يُعالج موضوع جرائم الاستعمار الفرنسي خلال المقاومة الشعبية (ثورة الزعاطشة ومقاومة الأغواط نموذجاً) طبيعة السياسات القمعية التي انتهجتها الإدارة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر خلال القرن التاسع عشر، خاصة في مواجهة الانتفاضات الشعبية التي رفضت الاحتلال. حيث اتسمت هذه السياسات باستعمال العنف المفرط، من خلال القتل الجماعي، والتدمير الشامل، وارتكاب مجازر في حق المدنيين، في محاولة لإخماد روح المقاومة وفرض السيطرة الاستعمارية.

وقد تجلت هذه الجرائم بوضوح في كل من ثورة الزعاطشة سنة 1849 ومقاومة الأغواط سنة 1852، إذ اعتمدت القوات الفرنسية أساليب إبادة جماعية وتخريب واسع النطاق، مما يعكس الطابع الوحشي للاستعمار.

الإشكالية:

للتعرف على اهم جرائم الاستعمار الفرنسي في مقاومة الزعاطشة والاغواط من 1849 الى 1852 قمنا بطرح تساؤل رئيسي:

إلى أي مدى ساهمت الجرائم الاستعمارية الفرنسية خلال مقاومتي الزعاطشة والأغواط بين 1852-1849 في تكريس السياسة القمعية الاستعمارية ضد الشعب الجزائري؟

التساؤلات الفرعية:

-ماهي الأسباب التي أدت إلى اندلاع مقاومتي الزعاطشة والأغواط؟

-ماهي الأساليب العسكرية التي استخدمها فرنسا للقضاء على المقاومتين؟

-ماهي الآثار السياسية والاجتماعية والإنسانية التي خلفتها هذه الجرائم على المجتمع؟

دوافع اختيار الموضوع:

أ_ العوامل الذاتية:

-الرغبة الشخصية في دراسة تاريخ المقاومات الشعبية الجزائرية.

-الاهتمام بالكشف عن الجرائم التي تعرض لها الشعب الجزائري خلال الاحتلال الفرنسي.

-التعرف على تفاصيل مجازر الزعاطشة والاغواط لما لها في التاريخ الوطني.

-ابراز التضحيات المقاومتين الجزائريين وصمودهم امام الاستعمار.

ب_ العوامل الموضوعية:

-قلة الدراسات التي بين الجرائم الاستعمار في مقاومتي الزعاطشة والاغواط في دراسة واحدة.

-المساهمة في اثراء المكتبة الجامعية ببحث تاريخي حول جرائم الاستعمارية الفرنسية.

-ابراز الابعاد السياسية والانسانية لمجازر الاحتلال الفرنسي في الجزائر.

أهداف الدراسة:

-التعرف على اسباب اندلاع مقاومتي الزعاطشة والاغواط.

-ابراز اهم الجرائم التي ارتكبها الاستعمار الفرنسي خلال المقاومتين.

-الاطلاع على وسائل القمع العسكري التي اعتمدتها فرنسا للقضاء على المقاومة الشعبية.

-حفظ الذاكرة التاريخية الوطنية والتعرف على تضحيات الشعب الجزائري.

المنهج المتبع:

ولمعالجة هذه الاشكالية اقتضت من طبيعة الدراسة الاعتماد على المنهج التاريخي القائم على جمع المعلومات من المصادر والمراجع التاريخية وتحليل الاحداث وربطها بسياقها الزمني مع الاستعانة بالمنهج الوصفي في وصف الجرائم الاستعمارية ومخالفاتها ونتائجها خلال مقاومتي الزعاطشة والاغواط.

الدراسات السابقة:

رغم شح او ندرة الدراسات التي تناولت مقاومتي الزعاطشة والأغواط بشكل مباشر، إلا أن هناك بعض الأطروحات الجامعية التي يمكن الاستفادة منها في هذا السياق، ومن بينها:

-حوحو أسامة، المقاومة الجزائرية في منطقة الزيبان 1844-1954، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2.

تناولت هذه الأطروحة الدور الذي لعبته منطقة الزيبان في دعم المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي، حيث ركزت على مختلف أشكال المقاومة، بما فيها مقاومة الزعاطشة باعتبارها من أبرز المقاومات في المنطقة، وقد جاء في ملخصها:

" إبراز الدور الذي لعبته منطقة الزيبان في دعم وتقوية عصب المقاومة الجزائرية"

كما أبرزت الدراسة اعتماد السكان على الإمكانيات المادية والروحية في مواجهة الاستعمار، مع توضيح دور الزوايا والقيادات المحلية في تأطير المقاومة.

تعد هذه الأطروحة من أهم الدراسات التي تناولت مقاومة الزعاطشة ضمن إطار جغرافي واسع (الزيبان)، حيث قدمت معطيات دقيقة حول طبيعة المقاومة وأساليبها.

لكن لم تفصل بشكل كبير في أحداث مقاومة الزعاطشة، كما لم تتطرق إلى مقاومة الأغواط رغم التقارب الجغرافي.

-عباس كحال، دور الزاوية الرحمانية في مقاومة الاحتلال الفرنسي بالزاب الشرقي (1849-1856)، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر 2.

ركزت هذه الدراسة على دور الزوايا الدينية، خاصة الزاوية الرحمانية، في دعم المقاومة الشعبية، حيث تطرقت إلى مقاومة الزعاطشة باعتبارها من أبرز الحركات المرتبطة بالنشاط الديني في المنطقة.

وقد ورد فيها:

"دور زاوية الرحمانية في مقاومة الاحتلال الفرنسي بالزاب الشرقي"

كما أبرزت الدراسة دور شيوخ الزوايا في تعبئة السكان وقيادة العمل المقاوم، خاصة في مناطق الزيبان.

تبرز هذه الدراسة أهمية البعد الديني في مقاومة الزعاطشة، وتوضح كيف ساهمت الزوايا في تنظيم المقاومة.

لكن ركزت فقط على الجانب الديني ولم تتناول الجوانب العسكرية والسياسية بشكل معمق، كما لم تتطرق لمقاومة الأغواط.

-دحدي سعود، البعد المغاربي لثورة الشريف محمد بن عبد الله (1842-1895)، أطروحة دكتوراه، جامعة الوادي.

تناولت هذه الأطروحة المقاومة في الجنوب الجزائري، خاصة في منطقة ورقلة وما جاورها، والتي ترتبط جغرافيًا وتاريخيًا بمقاومة الأغواط، وقد أكدت على أن:

"المقاومات الوطنية المسلحة ظهرت لمواجهة الاحتلال الفرنسي

كما بينت الدراسة الامتداد الجغرافي للمقاومة في الجنوب، ودورها في إضعاف التوسع الاستعماري الفرنسي

تساعد هذه الأطروحة على فهم السياق العام لمقاومة الأغواط، خاصة من حيث الامتداد الجغرافي والترابط بين مقاومات الجنوب

لكن لم تتناول مقاومة الأغواط بشكل مباشر، بل جاءت ضمن إطار عام للمقاومة في الجنوب.

خطة البحث:

من أجل الإجابة على إشكالية الموضوع ولإتمام هذه الدراسة اتبعنا خطة بحث تتكون من مقدمة وأربعة فصول وخاتمة بالإضافة الى الملاحق.

حيث تطرقنا فالمقدمة إلى التعريف بالموضوع، والاشكالية الرئيسية والإشكاليات الفرعية، دوافع اختيار الموضوع، أهداف الدراسة، المنهج المتبع، الدراسات السابقة، خطة البحث، نقد المصادر والمراجع، والصعوبات.

ففي الفصل الاول: جاء بعنوان الإطار العام للمقاومات الشعبية واسباب فشلها.

الفصل الثاني: جاء تحت عنوان جرائم الاستعمار في منطقة الزعاطشة، وتطرقنا من خلاله الى اسباب الثورة وقادتها واهم مجريات الثورة والمجازر التي شهدتها الزعاطشة في 26 نوفمبر 1849 واهم مظاهر والجرائم الاستعمارية.

الفصل الثالث: جاء تحت عنوان مقاومة الاغواط، تطرقنا فيه الى اسباب مقاومة الاغواط واهم احداث المقاومة والمجزرة التي حدثت في الاغواط في 4 نوفمبر 1852.

الفصل الرابع : جاء بعنوان الابعاد التاريخية والوطنية لجرائم الاستعمار الفرنسي تحدثنا فيه على السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجنوب الجزائري واهم انعكاسات

الجرائم الاستعمارية على المجتمع الجزائري وأثر المقاومات الشعبية في تنمية الوعي الوطني ومكانة مقومتي الزعاطشة والاغواط في التاريخ الجزائري.

نقد المصادر والمراجع:

بالنسبة للمصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها في معالجة بحثنا هي:

_كتاب ابو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية1900،1830، الجزء الاول اعتمدنا عليه في التعرف على قائد مقاومة الزعاطشة الشيخ بوزيان

_ كتاب محمد الطيب العلوي، مظاهر المقاومة الجزائرية، من بداية الثورة 1830 حتى اندلاعها 1954، اعتمدنا عليه في التعرف على مفهوم المقاومة الشعبية واهم اسباب فشل المقاومات الشعبية.

_مجلة المرأة، جيلالي حورية، الإستراتيجية الاستعمارية ضد مقاومة واحة الزعاطشة 1849، اعتمدنا عليها في معرفة احداث مقاومة الزعاطشة والمجزرة التي حدثت في 26 نوفمبر بمنطقة الزعاطشة.

_مجلة العصور الجديدة، د.بن عتو بلبراوات، الاحتلال الفرنسي للأغواط وضواحيها سنة 1852، اعتمدنا عليها في معرفة اهم نتائج مقاومة الاغواط

الصعوبات:

ومن اهم الصعوبات التي واجهتها اثناء قيامنا بالبحث نذكر:

-قلة المصادر والمراجع المتخصصة التي تتناول جرائم الاستعمار الفرنسي في مقاومة الاغواط والزعاطشة وبشكل مفصل.

-صعوبة الحصول على بعض الوثائق التاريخية المتعلقة بالمقاومتين.

-الاعتماد على المراجع الأجنبية الامر الذي شكل صعوبة في ترجمة.

-اختلاف الروايات التاريخية حول بعض الاحداث والارقام المتعلقة بالمقاومتين.

ضيق الوقت وكثرة الجوانب المتعلقة بالموضوع تعلق بتفاصيل الجرائم.

الفصل الأول

الفصل الأول: الإطار العام للمقاومات الشعبية

تمهيد

شهدت الجزائر مع مطلع القرن التاسع عشر منعرجاً تاريخياً حاسماً تمثّل في سقوط العاصمة عام 1830م تحت وطأة الاستعمار الفرنسي، وهو الحدث الذي لم يكن مجرد حملة عسكرية عابرة أو "نزهة عسكرية" كما توهم قادتها، بل كان بداية لمشروع استيطاني إحلالي استهدف تقويض أركان الدولة الجزائرية وطمس هويتها الثقافية والدينية. وأمام هذا الواقع الاستعماري المرير وسياساته القمعية الممنهجة من أرض محروقة، وتهجير قسري، وإبادة جماعية تولد لدى المجتمع الجزائري رد فعل طبيعي وتلقائي تمثّل في "المقاومة الشعبية" كآلية للدفاع عن الأرض والعرض والمقدسات.

أولا: مفهوم المقاومات الشعبية

مفهوم المقاومات الشعبية:

يُعد مصطلح 'المقاومة' (Resistance) المظلة الأشمل لمختلف أساليب مواجهة الظاهرة الاستعمارية. ومع ذلك، فإن التحديد الدقيق للمفهوم يحصره في دلالات الممانعة، ومواجهة القوة بالقوة[1]، ورفض الرضوخ للمتغيرات المفروضة قسراً من الخارج؛ أي منع العدو من فرض سيادته على أرض واقعة تحت سلطة المقاوم. وتجد هذه المقاربة الإجرائية مصداقيتها في التاريخ الجزائري من خلال الطور الأول للمقاومات الشعبية (مقاومة الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي)، تمييزاً لها عن الأطوار اللاحقة التي تنضوي تحت مصطلح **الثورة**[2] (révolution) والانتفاضة (soulèvement) أو كما جاءت في الكتابات الفرنسية بمصطلح التمرد (insurrection)، خاصة منها كتابات ضباط الجيش الفرنسي.

---

[1] صبحي حموي، المنجد في اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق، بيروت، 2001، ص 120.

[2] الثورة في معناها العام هي تغيير جذري في مجال من المجالات وانقطاع مفاجئ وعنيف وتقرن كلمة ثورة عادة بصفة لتحديد ماهيتها.

تُعرّف **المقاومة** سوسيولوجياً وسياسياً بأنها الفعل المناهض لشرعية الوجود الفرنسي، والرفض المطلق لآليات الهيمنة والاحتلال. وفي السياق الجزائري، تجسّد هذا المفهوم في ديناميكية مستمرة امتدت من عام 1830 حتى تحقيق الاستقلال عام 1962؛ حيث تميزت هذه الحقبة بنضال وطني متكامل اتسم بالصلابة والرفض القاطع للمشروع الاستعماري الفرنسي بمختلف أبعاده الإغرائية والقمعية. ولم يقتصر هذا الرفض على التصدّي العسكري فحسب، بل تبدّى في مناهضة كافة القرارات الإدارية، والتشريعات القانونية، والمحاولات الاستلابية التي استهدفت الهوية الثقافية والحضارية للمجتمع الجزائري[1].

وإذا كان التاريخ يشهد للجزائر بمقاومتها التاريخية لكل القوى الدخيلة وعدم استسلامها لسياسة الأمر الواقع، فإن المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي اكتست طابعاً أكثر ضراوة واستدامة. ويعود ذلك إلى الطبيعة الاستيطانية للاحتلال، الذي لم تقف أطماعه عند حدود جغرافية أو اقتصادية معينة، بل اعتمد على استراتيجيات عنيفة ووسائل قمعية ممنهجة، تركت أثراً عميقاً في الوعي والوجدان الجمعي الجزائري. وقد أفرز هذا السلوك الاستعماري ردود فعل وطنية متكافئة في حدتها وعنفوانها، لتستمر المقاومة كعملية جدلية متواصلة؛ فكلما عمدت الإدارة الكولونيالية إلى فرض مشروع استيطاني جديد، جابهتها الإرادة الوطنية بمشروع نضالي مضاد يُفشل أهدافها الإستراتيجية.

واستعملوا في ذلك نوعين من المقاومة:

المقاومة الإيجابية: تجسدت في الانتقال الديناميكي للحركة الوطنية الجزائرية من طور المواجهة العسكرية المباشرة والانتفاضات الشعبية المسلحة منذ عام 1830، إلى طور النضال السياسي والدبلوماسي والثقافي المنظم عقب الحرب العالمية الأولى لمواجهة المنظومة الاستعمارية وأطرها الإيديولوجية.

[1] محمد الطيب العلوي، مظاهر المقاومة الجزائرية من عام 1830حتى ثورة نوفمبر 1954، ط1، دار البعث، قسنطينة، 1985، ص ص17-18

المقاومة السلبية: تجلت في الرفض المجتمعي المطلق لسياسات الاندماج والاحتواء الكولونيالية، من خلال مقاطعة اللغة والمؤسسات الفرنسية كأدوات للاستلاب الثقافي، ومجابهتها بتأسيس بنية تحتية وطنية موازية شملت المساجد، والمدارس الحرة، والنوادي الرياضية والفنية لتحصين الهوية والشخصية الجزائرية.

وتعني المقاومة أيضا بانها رد فعل اولي اتجاه الاعمال الوحشية للغزاة والتي وصفها مؤرخ فرنسي بقوله "ولم تعرف مدينة في العالم ما عرفته مدينة الجزائر من الفوضى يوم اجتاحتها القوات الفرنسية"

ومن خلال الدراسات التاريخية، يتضح بأن الثورات الشعبية ابتداء 1830م، هي رد فعل وطني ومشروع مستمر ومتنوع حسب الظروف المحيطة به ضد فعل استعمار مستمر وغيرقانوني.

ثانيا: أهم المقاومات الشعبية

عقب سقوط العاصمة عام 1830، ساد الاعتقاد لدى **قادة** الحملة الفرنسية أن السيطرة على الإيالة لن تتعدى كونها حملة استعراضية خاطفة (Promenade militaire). غير أن هذا التصور سرعان ما تبدد أمام المقاومة الراديكالية والانتفاضات الشعبية المنظمة التي قادها المجتمع الجزائري. وأمام هذا الإخفاق في تحقيق إخضاع سلس، انتقلت الاستراتيجية العسكرية الكولونيالية إلى تبني سياسة الأرض المحروقة والممارسات القمعية الممنهجة، والتي تمثلت في حرب الإبادة الجماعية، التهجير القسري، وسياسة العقاب الجماعي ضد القبائل الثائرة، بغية تثبيت ركائز الاستيطان وفرض الهيمنة الاستعمارية.[1]

رغم السياسة الاستعمارية المبنية على الإبادة الجماعية والقهر والاستيطان، صمد الجزائريون في مواجهتهم للاستعمار واستمرت المقاومات الشعبية عبر مناطق وأقاليم

[1] محفوظ قداش، جزائر الجزائريين، تاريخ الجزائر 1956-1830، تر: محمد المعراجي، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، 2008، ص 28

الجزائر والجدول التالي يبين الإطار العام للمقاومات الشعبية في الجزائر واستمراريتها.....

ثورة الأمير عبد القادر	22نوفمبر 1832 الى 23 ديسمبر 1847.
مقاومة أحمد باي	1848-1937.
مقاومة بو معزة	1847- 1845محمد بن عبد الله الملقب بومعزة.
الزعاطشة	1849-1848 بوزيان الشريف بوعمار.
مقاومة الأغواط وتوغرت	04 ديسمبر 1852الى 29نوفمبر 1854 الشريف محمد بن عبد الله بن سليمان.
ثورة القبائل	1857- 1851 لالة فاطمة، الشريف بوبغلة.
ثورة الأوراس	1858محمد بن عبد الله.
ثورة بني سناسن	1859
ثورة أولاد سيدي الشيخ	1880- 1864 سليمان بن حمزة، معمر بن الشيخ بن طيب، زاوية ولاد سيدي الشيخ.
ثورة جنود الصبايحية	1871جانفي.
ثورة ولاد عبدون	14فيفري 1871الى 20جانفي 1872
انتفاضة المقراني والحداد	مارس 1871 إلى 20 جانفي 1872
مقاومة العمري	مارس أفريل 1876 الشيخ محمد بن يحي بن عياش.
ثورة الاوراس	ماي 1876الى جوان 1879 حمد امزيان بن عبد الرحمن.

يُظهر تتبع الجغرافيا التاريخية للمقاومة الشعبية في الجزائر، سياقاً ومكاناً، تجذر الوعي والنضال الوطني ضد الوجود الاستعماري الفرنسي. فقد واجه المجتمع الجزائري هذا التواجد باعتباره كياناً غريباً ومنظومة تفكيكية هددت الهوية الثقافية والدينية للبلاد، وهو سلوك إحلالي يتشابه في منطلقاته وطبيعته الوظيفية مع المشاريع الاستيطانية الأخرى في المنطقة العربية، كالكيان الصهيوني، والتي تحمل بذور عدم استمراريتها

التاريخية نتيجة الرفض الشعبي المطلق لها. وبناءً على ذلك، اتسمت المقاومة الجزائرية خلال القرن التاسع عشر بكونها حراكاً شعبياً شاملاً وعاماً، ومن أبرز محطاتها:

1. **المقاومة المسلحة في الظهرة والونشريس (1845م):** اندلعت بقيادة الشريف محمد بن عبد الله (المدعو بومعزة)، وتصنف كإحدى **الثورات الشعبية** التي تميزت بامتدادها الجغرافي إلى مستغانم والحضنة، حيث شكلت استنزافاً عسكرياً كبيراً لجيش الاحتلال الفرنسي وأربكت استراتيجيته في التوسع الإقليمي.[1]

2. **ثورة القطاع الوهراني (1846م):** شملت مناطق الغزوات، مغنية، بني بوسعيد، سبدو، تلمسان، ورأس الماء؛ وتميزت هذه **المقاومة الشعبية** بضرب المنظومة الإدارية والعسكرية للاحتلال، ولم تتراجع حدة العمليات الحربية إلا بعد تصفية الحاكم العسكري الفرنسي في تلمسان، وملاحقة **القيّاد والأعوان المحليين** المعينين من قِبل "المكاتب العربية" الفرنسية.

3. **مقاومة واحة الزعاطشة (1848م):** قادها الشيخ بوزيان في مناطق الزيبان، الأوراس، بوسعادة، بسكرة، والمسيلة. وتعد هذه المعركة من أبرز **حركات المقاومة الوطنية** التي واجهة حملات الإبادة وحصار الجيوش الفرنسية، حيث اتخذت أبعاداً جهادية دفاعاً عن الأرض والهوية الإسلامية.

4. **مقاومة الجنوب والوسط الجزائري (1852م):** تزعمها الشريف محمد بن عبد الله في مناطق الأغواط، تيارت، معسكر، تقرت، وغرداية، وجاءت رداً تاريخياً مسلحاً على **السياسات الاستعمارية التعسفية**، وممارسات **حكام المكاتب العربية** وجيش الاحتلال ضد الأهالي.

5. **مقاومة بلاد القبائل (1851-1857م):** قادها الشريف بوبغلة والمجاهدة لالة فاطمة نسومر في جبال جرجرة ومناطق بجاية، تيزي وزو، البويرة، بومرداس، والثنية.

[1] العربي منور، تاريخ المقاومة الجزائرية في القرن التاسع عشر، دار المعرفة، الجزائر، 2006، ص.43

لم تكن مجرد رد فعل عاطفي، بل **ثورة منظمة** هددت الوجود العسكري الفرنسي في إقليم القبائل، واندلعت لمواجهة **سياسة الأرض المحروقة** وانتهاك الحرمات ومصادرة الأراضي، ولم يتمكن الاحتلال من إخمادها إلا بعد استعاب الفارق العسكري والاستعانة بـــ**المجندين المحليين (الحركى والأعوان)**.

6. **مقاومة الأوراس والوادي الكبير (1858م):** قادها محمد بن عبد الله في خنشلة، عين البيضاء، وبسكرة. واكتست طابعاً دفاعياً عقائدياً بعد إقدام الإدارة الاستعمارية على مصادرة مسجد بالوادي الكبير وتحويله إلى كنيسة، مما اعتبره الأهالي تعدياً صارخاً على **المقدسات الإسلامية**، فكان دافعاً لتجدد العمل المسلح.

7. **مقاومة الغرب الجزائري (1860م):** شملت مناطق وهران، مستغانم، مازونة، المحمدية، سيق، سيدي بلعباس، وادي تليلات، وعين تموشنت، وامتدت حتى سعيدة. انطلقت **كثورة شعبية** من مسجد المدينة الجديدة بوهران في ذكرى مبايعة الأمير عبد القادر، وشهدت مواجهات مسلحة مباشرة وعمليات فدائية استهدفت **الجالية الأوروبية المستوطنة** و**الأعوان المحليين للمكاتب العربية**، تعبيراً عن الرفض المطلق للوجود الاستعماري.[1]

8. **ثورة أولاد سيدي الشيخ (1864م):** اندلعت في مناطق جبل عمور، البيض، تيارت، فرندة، غليزان، مازونة، وادي رهيو، تسمسيلت، والمسيلة. قادها شيوخ القبيلة رداً على **السياسة الجبائية التعسفية** التي فرضتها الإدارة الاستعمارية على **الأهالي**، وتنديداً بمصادرة أراضي الفلاحين الجزائريين وتخصيصها **للمستوطنين الأوروبيين واليهود** (بموجب القوانين العقارية الاستعمارية).

9. **مقاومة المقراني والشيخ الحداد (1871م):** شملت جغرافيا واسعة ضمت برج بوعريريج، العلمة، سطيف، البويرة، الأخضرية، ذراع الميزان، بجاية، تيزي وزو،

[1] العربي منور، المرجع السابق، ص 44

وبومرداس. تعد من أكبر **الثورات الشعبية** في القرن التاسع عشر، واندلعت احتجاجاً على **التوسع الاستيطاني الكولونيالي** ومصادرة أراضي الجزائريين ومنحها **للمعمرين** واللاجئين الأوروبيين (بعد الحرب السبعينية).

10. **مقاومة الجنوب والواحات الصحراوية (1875م):** شملت أدرار، عين صالح، تمنراست، جانت، وغرداية. تمثلت في **حركة مقاطعة ومقاومة مسلحة** قادها سكان الصحراء ضد التغلغل الاقتصادي والعسكري الأوروبي الذي استهدف السيطرة على المسالك التجارية العابرة للصحراء نحو النيجر وتشاد، واكتست طابعاً دفاعياً لحماية السيادة الاقتصادية والمقدسات الدينية.

11. **انتفاضة الأوراس (1876م):** قادها أمزيان بن عبد الرحمان في مناطق الأوراس، أولاد داود، بني سليمان، خنشلة، عين البيضاء، بسكرة، وباتنة. وجاءت رد فعل مسلح مباشر على تجاوزات وانتهاكات جيش الاحتلال الفرنسي ضد الكرامة الإنسانية والشرف للمجتمعات المحلية.

12. **مقاومة الشيخ بوعمامة (1881م):** امتدت عبر عين الصفراء، البيض، بشار، تيارت، المسيلة، سعيدة، سيدي بلعباس، ورقلة، وغرداية. اندلعت رداً على السياسة التعسفية للإدارة الاستعمارية التي هدفت إلى **إفقار الأهالي** ومصادرة أراضيهم وأرزاقهم لتنفيذ مخططات **الاستيطان الإحلالي** وتهجير السكان الأصليين.

13. **انتفاضة القطاع الوهراني (1890م):** شملت مسيردة، بني ويسين، مغنية، تلمسان، لعشاش، جبالة، ندرومة، السواحلية، والغزوات. جاءت استجابة لدعوات **الجهاد والدفاع العقائدي** التي أطلقها الشيخ بوعمامة والشيخ الخضير محمد، لمواجهة السياسات الاستعمارية التي استهدفت الهوية الإسلامية ومصادرة الأوقاف والمساجد.[1]

[1] العربي منور، المرجع نفسه، ص 45

14. **انتفاضة عين تركي / مليانة (1901م):** شملت مليانة، شرشال، تيبازة، البليدة، الحجوط، العفرون، وتنس. قادها يعقوب بن الحاج، وتعتبر حركة مقاومة ضد **السياسة الاندماجية الفرنسية** التي حاولت التعدي على العقيدة، التقاليد المحلية، والحرمات الخاصة **بالجزائريين المسلمين.**

15. **انتفاضة الأوراس وميزاب (1902م):** قادها الشيخ عبد السلام في مناطق باتنة، خنشلة، بسكرة، بريكة، مروانة، سطيف، القطارة، ووادي ميزاب، وجاءت احتجاجاً على تغول قانون "الأهالي" ومصادرة الأملاك والأراضي دون مسوغ قانوني.

16. **انتفاضة التجنيد الإجباري (1914 – 1916م):** ثورة شعبية متزامنة شملت مناطق واسعة في الشرق والغرب الجزائري (من أبرزها انتفاضة الأوراس 1916 بقيادة الشيخ بن علي بن النوي)، اندلعت رداً على صدور **قانون التجنيد الإجباري (1912م)** الذي فرضه الاحتلال على الشباب الجزائري لإقحامهم في معارك الحرب العالمية الأولى لخدمة المصالح الفرنسية، حيث ساندت هذه الانتفاضة فتاوى شرعية تحرّم القتال تحت الراية الفرنسية.[1]

من خلال ما سبق، يمكن الوقوف عند الملاحظات التاريخية التالية:

اتسمت المقاومة الوطنية الجزائرية ضد التمدد الكولونيالي الفرنسي بالاستمرارية والتعددية في الأنماط والوسائل؛ إذ يعود تاريخ انطلاقها إلى مرحلة الحصار البحري عام 1827، مارةً بمنعطف غزو 1830. وقد تباينت هذه الحركات المقاومة في مستويات التعبئة الشعبية، والقدرة على التجنيد، وهياكل التنظيم العسكري. فبينما اتخذت بعض ردود الفعل شكل انتفاضات محلية عفوية تمكنت الإدارة الاستعمارية من احتواها وإخمادها، برزت في المقابل حركات مقاومة منظمة (مؤسساتية) أظهرت كفاءة استراتيجية وعسكرية عالية، وشكلت تحدياً حقيقياً لـــمشروع الاستيطان الفرنسي[2] شكلت دولة الأمير عبد القادر

[1] العربي منور، المرجع السابق، ص 46

[2] عميراوي أحميدة، موضاعات من تاريخ الجزائر السياسي، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، 2003، ص ص 67-68

(1832-1847) النموذج الأكثر نضجاً في مسار المقاومة الوطنية، نظراً لبنيتها المؤسساتية المتكاملة على الصعد العسكرية، والسياسية، والإدارية، والاجتماعية؛ مما جعل إخمادها عصياً على المؤسسة العسكرية الفرنسية. وأمام هذه الصلابة، وظفت فرنسا الدبلوماسية كآلية استراتيجية المانورة من خلال إبرام المعاهدات الهدنة (كمعاهدتي دي ميشال والتافنة) لالتقاط الأنفاس وإعادة ترتيب صفوفها. وفي المقابل، استثمر الأمير حنكته السياسية والعسكرية لتوسيع النطاق الجغرافي للمناطق المحررة وإدارتها، مستنداً إلى استراتيجية حرب العصابات والمواجهات المباشرة التي بلغت زهاء 27 معركة. وتزامناً مع هذا الزخم في الغرب والوسط، واجه جيش الاحتلال عقبات هيكلية في التوسع نحو الشرق؛ حيث عجز عن إخضاع قسنطينة في حملته الأولى، ولم يتمكن من احتلالها إلا بعد الحملة العسكرية الثانية (13-14 أكتوبر 1837)، إثر مقاومة مستميتة قادها **الحاج أحمد باي**، مما يثبت تظافر جبهات المقاومة وتكاملها في استنزاف القوات الاستعمارية.[1]

وشكلت ثورة بوعمامة التي استمرت من أفريل 1881 إلى أكتوبر 1908 قيمة خاصة في مواجهة التوغل الاستعماري في الجنوب الغربي الوهراني وعموم الصحراء، وبفضل هذه المقاومة، تأخر الاحتلال والتوغل في الصحراء الجزائرية، ولم تستطع فرنسا فرض الاستعمار إلا بالقوة والتوقيع بين قبائل أولاد سيدي الشيخ.

لم تنل عدة " مقاومات شعبية " نصيبها من الدراسة التاريخية خاصة منها المونوغرافية، إذ تبقى عدة أمثلة عن مقاومات شعبية بعيدة عن البحث التاريخي، بل يشار إليها سطحيا في بعض الكتابات، والمثال منطبق على "انتفاضة 1846 في منطقة مسيردة الغزوات بني بوسعيد سيدو تلمسان"، وانتفاضة 1875 في أدرار، عين صالح، تمنراست، غرداية. [2]

[1] عبد الحميد زوزو، محطات في تاريخ الجزائر،دار هومة، الجزائر، 2011، ص 160

[2] محمد الطيب العلوي، مظاهر المقاومة الجزائرية، ط1، دار البعث، قسنطينة، 1985، ص 69.

ثالثا: خصائص المقاومة الشعبية

تُعد **المقاومة الشعبية** الملمح الجوهري لرفض المجتمع الجزائري للوجود الاستعماري منذ بواكير الغزو عام 1830. فقد اتخذت هذه المقاومة طابعاً شمولياً استند إلى ثوابت الهوية الوطنية، المتمثلة في المرجعية الدينية والارتباط بالأرض، وترجمت في سلسلة من الانتفاضات المسلحة التي شملت كافة أرجاء الإيالة. وقد اتسم هذا الفعل المقاوم بخصائص بنيوية تعكس ملامح التشكيلة الاجتماعية الجزائرية في القرن التاسع عشر؛ حيث استندت إلى العصبية القبلية، وشرعية الجهاد كإطار تعبوي. وعلى الرغم من التباين في موازين القوى والتفوق التقني والعسكري للآلة الاستعمارية القائمة على القمع الممنهج، حافظت هذه المقاومة على زخمها الاستمراري. لذا، يكتسب تحليل خصائص المقاومة الشعبية أهمية بالغة في تفكيك ديناميكيات النضال الوطني وفهم استراتيجيات المواجهة التي تبناها المجتمع الجزائري في ظل تصديه للمشروع الإحلالي الفرنسي.

استمدت القيادات في المقاومة الشعبية مشروعيتها من آلية التزكية الجماعية التي تجسدت في عقد البيعة، بوصفه شرعية دينية وسياسية ذات طابع علني وتوافقي، وغالباً ما تم هذا التوجيه والـــتأطير تحت مظلة المؤسسة المشيخية (الزوايا). ومن الناحية الجغرافية والسوسيولوجية، اتخذت هذه المقاومات من المجال الريفي مسرحاً أساسياً لعملياتها، حيث شكلت البنية القبلية أو الأحلاف العشائرية والقرية الوحدات الارتكازية للتعبئة والنفير العسكري. ويُمثّل هذا النمط المعتمد على الأرياف القاعدة العامة للمقاومة، باستثناء المقاومة المؤسساتية للحاج أحمد باي (1837)، والتي تميزت بطابعها الحَضري؛ إذ تمحورت إستراتيجيتها الدفاعية حول المركز المديني لـــحاضرة قسنطينة، مستندةً إلى بقايا هياكل الدولة الجزائريّة قبل عام 1830.

إن محفزات الثورة لدى الجزائري كانت دينية ووطنية، فالتمرد والثورة بالنسبة له ضرورة وحتمية. لمحاربة الرومي المحتل وللدفاع عن الأرض والعرض، ولمواجهة

الاستعمار الاستيطاني... تحت قائد مبايع، أصبح في نظر الجزائري هو "المهدي المنتظر"، " هول الساعة ومخلصه ومنجيه من الاستعمار.

تباينت المقاومات الشعبية الجزائرية في ثقلها الاستراتيجي ووزنها التاريخي؛ إذ لم يكن مداها الزمني معياراً لتقييم زخمها، بل تكمن قيمتها الحقيقية في مخرجاتها الميدانية ومدى تقويضها للمشروع الاستعماري.

انقسمت الحركات الكفاحية إلى أنماط متعددة، برز من بينها نمط الثورات المنظمة والمؤطرة التي تجاوزت الفعل العسكري الصرف لتكتسي أبعاداً سياسية، وسوسيو-اقتصادية، ومؤسساتية متكاملة (كما تجسد في مقاومتي الأمير عبد القادر والشيخ بوعمامة)، حيث تميزت بمسار تطوري نمائي، وتدرج استراتيجي، وقدرة العالية على حشد الحاضنة الشعبية وتسييرها.[1] ومراحلها وأبعادها الاستراتيجية. وفي المقابل، كانت بعض المقاومات عبارة عن عصيان أو تمرد جماعي لم يرق إلى التنظيم.[2]

لم تكن مرحلة (1830 - 1916) مجرد مقاومة شعبية عن طريق التجنيد الشعبي بل عرفت نضال سياسي لمواجهة الاستعمار الفرنسي وتعتبر حركة أعيان مدينة الجزائر وأعمال حمدان خوجة بمثابة بداية وبوادر للنضال السياسي وعموم الحركة الوطنية الجزائرية.

انتهجت الإدارة الاستعمارية الفرنسية استراتيجيات متعددة الأبعاد للحد من زخم المقاومات الشعبية وإجهاضها؛ حيث زاوجت بين الآليات الزجرية العنيفة كالإبادة الجماعية، والتهجير القسري، وسياسة الأرض المحروقة وبين المناورات الدبلوماسية والسياسية التي تمليها الضرورات البراغماتية، والمتمثلة في إبرام الهدن والاتفاقيات المؤقتة، فضلاً عن سياسة الاستمالة وتوظيف القوى المحلية الموالية لها.

---

[1] عميراوي، موضوعات من تاريخ الجزائر السياسي، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2003، ص ص 96- 97

[2] جيلالي بلوفة عبد القادر، المقاومة الشعبية الجزائرية: قراءة تاريخية في أسباب حدوثها وعوامل تواصلها (1830-1916)، مجلة الحضارة الإسلامية، جامعة تلمسان، ع 24، أكتوبر 2014، ص 122

وتتجسد هذه المقاربة التفكيكية للبنية الاجتماعية الجزائريّة في الاتفاقية المبرمة بتاريخ **16 جوان 1835** بين الجنرال تريزل (TREZEL) بصفته مفوضاً من الحاكم العام الفرنسي للجزائر— وشيوخ قبيلتي الدوائر والزمالة وهي معاهدة اندرجت ضمن مساعي الاحتلال الرامية إلى اختراق الصف الداخلي، وتوظيف هذه القوى القبلية كحليف محلي لمجابهة وتطويق الدولة الناشئة للأمير عبد القادر.[1]

– ومن بين أساليب الاستعمار الأخرى والمهمة، دعم الاستيطان الأوربي، وكان من بين النتائج المباشرة لإنهاء أي ثورة هو مصادرة الأراضي وتحويلها إلى المستوطنين، وتزايد حجم أراضي المستوطنين التي كانت مقدرة في 1870 بـــ 565 ألف هكتار ليصل إلى 2.123.000 هكتار سنة 1917.

رابعا: أسباب فشل المقاومات الشعبية

حققت المقاومات الشعبية الجزائرية خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مكاسب تاريخية عظيمة، حيث عطلت المشروع الاستعماري الفرنسي لأكثر من سبعة عقود وكبّدته خسائر فادحة. ورغم هذه البطولات، إلا أنها لم تنجح في طرد الاحتلال وتحقيق الاستقلال التام بسبب مجموعة من الأسباب المتشابكة.[2]

1 واقع المجتمع الجزائري والسياسة الاستعمارية تجاه المقاومات الشعبية:

شهد البناء المجتمعي الجزائري تحولاً جذرياً وسلبياً غداة الغزو الفرنسي؛ إذ استهدفت السياسات الكولونيالية تقويض مقومات الهوية الوطنية عبر استراتيجيات ممنهجة قامت على القمع، والإفقار، والتجهيل، فضلاً عن السعي الحثيث لتفكيك البنى الاجتماعية

[1] بشير بلاح، تاريخ الجزائر المعاصر (1830-1989)، ج1، دار المعرفة، الجزائر، 2006، ص 152.

[2] عميراوي أحميدة وآخرون، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1844-1916، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2009،ص ص 130 -131

التقليدية. وبالرغم من ضراوة هذه السياسة الهيمنية، أبدى المجتمع الجزائري ممانعة وجودية حالت دون تحقيق المساعي الفرنسية الرامية إلى إخضاعه واستسلامه المطلق .[1]

ومع ذلك فإن قراءة موازين القوى تُظهر أن الشعب الجزائري لم يكن يمتلك الكفاءة الندية من الناحية النظرية لمجابهة الآلة العسكرية الفرنسية ودحرها، ولم يقتصر هذا الاختلال على الجانب العسكري الفني فحسب، بل امتد ليشمل المؤشرات الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية. ويُعزى هذا الهوان البنيوي جزئياً إلى تركة العهد العثماني، فبالرغم من الدور التاريخي الإيجابي للأتراك في تحرير الثغور الجزائرية من التواجد الإسباني، وتعزيز المكانة الجيوسياسية للإيالة في حوض البحر الأبيض المتوسط، إلا أن الحوكمة العثمانية اتسمت بإقصاء المكون المحلي وتكريس مظاهر التخلف.

لقد حافظ نظام الحكم في الجزائر على طابعه العسكري المغلق ومأسسة الهيمنة التركية، حيث أحجم الدايات الذين استقلوا فعلياً عن الباب العالي عن إدخال إصلاحات هيكلية تدمج الأهالي في منظومة الحكم، مما أفقد السلطة شرعيتها الشعبية وعزلها عن بيئتها الاجتماعية، وأدى بالنتيجة إلى وهن الإدارة المركزية. وبناءً على ذلك، اتسمت المراحل الأخيرة من العهد العثماني بأزمات مركبة، تداخل فيها التدهور الاقتصادي[2] مع الركود الاجتماعي الناتج عن إهمال الحكام لقطاعي الصحة والتعليم.

إبان عشية الاحتلال الفرنسي، كانت السِمات الغالبة على المجتمع الجزائري تميل نحو البداوة، والفقر، والأمية، فضلاً عن التشرذم السياسي ذي الطابع القبلي وغياب الوحدة الاجتماعية المتماسكة، وهي عوامل موضوعية سهلت بشكل مباشر توغل

[1] شاوش حباسي، من مظاهر الروح الصليبية للاستعمار الفرنسي بالجزائر 1830-1962، دار هومة، الجزائر، 1998، ص ص 173-174.

[2] إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ط2، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1982، ص 24.

الاستعمار الفرنسي. وفي تشخيص دقيق لهذه البيئة السوسيولوجية المأزومة، يذكر الدكتور عبد المالك مرتاض في مؤلفه أدب المقاومة الوطنية في الجزائر:

«.. وشعب هذا شأنه، ومجتمع كانت تلك سيرته، ما كان لينتظر منه أن يبدع فيتقن، وينشئ فيتفوق، بل كان منتظر منه أن يبدع به فيتوقف، أرأيت البطن إذا جاع، وأن العقل إذا سلط عليه الجهل، وأن التفكير إذا ابتلي بالخمول والإهمال، وأن الخيال إذا أعمل في البحث عن القوت عوض التفكير في ابتداع عوالم جديدة لما تنشأ، وأن القريحة إذا ألم عليها نتيجة لكل ذلك الأين والخرع، لا شيء من بعد ذلك يرجى في ذلك المجتمع الشقي المحروم من خير...» [1]

ومن اجل اضعاف الشعب الجزائري أكثر سعت الإدارة الاستعمارية الفرنسية إلى تقويض ركائز الهوية الوطنية الجزائرية بهدف إحباط أي محاولات لتنظيم المقاومة أو توحيدها. وتجسد ذلك في الاستهداف الممنهج للمؤسسات الدينية والتعليمية، كالمساجد والمدارس والزوايا؛ حيث تشير المعطيات التاريخية إلى اندثار المدارس القرآنية في البلاد بحلول عام 1849. وفي المقابل، انتهجت فرنسا سياسة "الفرنسة" والتبشير الديني، مستترةً خلف غطاء الأعمال الإنسانية والخدمات الطبية والاجتماعية كإطعام الجياع ورعاية المرضى لتحقيق اختراق ثقافي واجتماعي[2].

بهدف إيجاد توازن ديمغرافي يضمن ولاء الساكنة للاستعمار ويحد من الثورات، شجعت السلطات الفرنسية الاستيطان الأوروبي المكثف، وصاحب ذلك انتزاع ملكيات الأراضي من الجزائريين وتمليكها للمستوطنين. علاوة على ذلك، اعتمدت الإدارة الاستعمارية استراتيجية تفكيك البنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري؛ ولم يقتصر ذلك على

[1] عبد المالك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر 1830-1962، سلسلة منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة اول نوفمبر 1954، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 37.

[2] محمد علي الطاهر، التعليم التبشيري في الجزائر (1830-1904) – دراسة تحليلية تاريخية، منشورات دحلب، 1997، ص 69.

سياسات النفي، التهجير، والتجهيل، بل امتد إلى إثارة النزاعات القبلية وتطبيق سياسة "فرق تسد"، من خلال محاولة الفصل الإثني بين العرب والبربر وتصوير الطرف الأول كقوة غازية وفق الرؤية الاستعمارية. وكان الهدف الأساسي من هذه المقاربة هو تفتيت الحاضنة الشعبية للمقاومة التي تسامت فوق الفوارق القبلية تحت راية الجهاد[1].

وظفت فرنسا المنظومة القانونية كأداة ردعية لإضعاف المقاومات الشعبية، وعزل قادتها، وثني الجزائريين عن الانخراط فيها. وقد تكثفت هذه التشريعات المصادِرة للأملاك بالتزامن مع استئناف الأمير عبد القادر لمقاومته عام 1839، وصدرت قرارات رسمية تقضي بمصادرة أراضي القبائل والأنصار المساندين له [2]

2. التفوق العسكري الفرنسي والمعادلة الدفاعية الجزائرية:

شكلت حركة الغزو الاستعماري الفرنسي للجزائر نقطة تحول جذرية كشفت عن تباين عميق في موازين القوى العسكرية. وفي محاولة لتفسير غياب المؤسسة العسكرية النظامية في مرحلة المقاومة الشعبية التي أعقبت سقوط الحكم المركزي العثماني، وما ترتب عنها من عقبات واجهت الأمير عبد القادر في تأسيس جيش دائم ومتفرغ؛ تعزو بعض الأدبيات التاريخية ذلك إلى "النفور الفطري" للمجتمع الجزائري من فكرة التجنيد الإجباري إبان العهد العثماني.

ومع ذلك، يظل هذا الطرح قاصراً عن تفسير الجذور البنيوية للأزمة، إذ إن الإخفاق في بناء جيش نظامي رادع بعد سقوط العاصمة عام 1830 لم يكن ناتجاً عن ممانعة مجتمعية للانضباط العسكري، بل يعود بالأساس إلى طبيعة النظام العثماني نفسه، والذي اتسم بالهامشية والعزلة السوسيوسياسية عن الجماهير. هذا الانفصال البنيوي ترك المجتمع

[1] – صالح فركوس، مشروع فرنسا الصليبية والمجابهة الاسلامية، دار الكوثر للنشر، الجزائر،1991، ص ص 92-95.

[2] صالح فركوس، إدارة المكاتب العربية والاحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق البلاد (1844-1871)، منشورات جامعة باجي مختار، الجزائر، 2006، ص ص 199-203.

الريفي العريض رهينةً للنفوذ الإقطاعي، وولاءات قبائل "المخزن"، والعصبيات القبلية، فضلاً عن التوجيه الروحي والسياسي للطرق الصوفية والزوايا.

من جهة أخرى، عانت إيالة الجزائر في العقود الأخيرة من حكمها تراجعاً حاداً في كفاءتها العسكرية والتقنية مقارنة بالقوى الأوروبية. ففي الوقت الذي شهدت فيه فرنسا وأوروبا طفرة نوعية في مجالي التسليح والتنظيم العسكري بفضل إفرازات الثورة الصناعية والاكتشافات العلمية، ظل الجيش الإنكشاري في الجزائر يفتقر للتحديث. هذا التباين التكنولوجي والتنظيمي يفسر التفوق الكاسح للجيش الفرنسي ليس فقط على القوات النظامية للإيالة، بل وبشكل أعمق على المقاومة الشعبية التي تشكلت في معظمها من الفلاحين وسكان الأرياف المتطوعين الذين يفتقرون للتدريب العسكري والعتاد المتطور.

وفي هذا السياق، يقرّ الحاج أحمد باي بهذا الاختلال الفادح في ميزان القوى قائلاً: "...وقع المصير المحتم ولم يكفِ لدفع ورفع الأخطار المحدقة بنا لأن قوة العدو وإمكانياته كانت أقوى وأضخم بكثير من قوتنا وإمكانياتنا..."

تجلت مظاهر التفوق العسكري الفرنسي في اعتماد استراتيجية "الحشد المكثف" والإفراط في استخدام القوة البشرية والعتاد حتى في المهام الميدانية المحدودة. ويعكس تقرير أحد الضباط الفرنسيين هذه المعضلة اللوجستية بقوله: "لقد كنا دائماً في حاجة إلى 4 آلاف أو 5 آلاف جندي لكي تصل إلينا بعض الصناديق من البسكويت، ولكي تنقل إلينا الرسائل".

وتؤكد الشواهد التاريخية هذا التوجه الكمي؛ حيث قاد الجنرال "لامورسيير" حملة عسكرية قوامها 4500 جندي مدججين بالسلاح للإغارة على منطقة صغيرة في "الوادي المالح". وفي ذات السياق، تحرك الجنرال "بيجو" بجيش يتراوح تعداده بين 30 إلى 36 ألف جندي لمواجهة قوة جزائرية محدودة لا تتعدى 1500 إلى 2000 فارس في المرتفعات المحيطة بالجزائر العاصمة.

وقد بلغت هذه التعبئة ذروتها بحلول عام 1843، حيث تجاوز تعداد القوات الفرنسية المرابطة في الجزائر 100 ألف جندي، وُجِّهت الكتلة الضاربة منهم لإخماد المقاومة المنظمة التي قادها الأمير عبد القادر.

3.السياسة القمعية للاحتلال الفرنسي :

اعتمدت الإدارة الاستعمارية الفرنسية إستراتيجية قائمة على العنف المفرط والقمع الممنهج لإخماد المقاومات الشعبية، وتثبيت أركان الاستيطان الأوروبي، لاسيما بعد إعلان الجزائر جزءاً من الإقليم الفرنسي عام 1848م. [1]وقد تجسدت هذه السياسة الشاملة في ثلاثة نماذج رئيسية.

أ. مقاومة متيجة (مقاومة ابن السعدي)

رفضت القيادة الفرنسية أي خيار للتفاوض مع المقاومة؛ حيث عُزل القائد "بتزيرين" لاتهامه بمحاورة قائد مقاومة المتيجة "بن السعدي" عام 1830م. وحلّ محلّه الدوق "دوروفيغو" في ديسمبر 1831م على رأس قوة قوامها 26 ألف جندي، حيث قاد حملة إبادة جماعية ضد قبائل متيجة، أسفرت عن مجازر فظيعة وتهجير الأهالي نحو الداخل، مما مكن الجيش الفرنسي من مصادرة أراضيهم وإنهاء المقاومة.[2]

ب. مقاومة الأمير عبد القادر

استهدفت القيادة الفرنسية الحاضنة الشعبية للأمير عبد القادر؛ حيث تعمد الحاكم العام "فالي" ضرب القبائل الموالية له. وتكثفت هذه السياسة بتعيين الجنرال "بيجو" في فبراير 1841م، والذي مُنح صلاحيات واسعة وقوات ضخمة، ليتولى تطبيق استراتيجية "**الحرب الشاملة**" وحرب الإبادة كخيار أوحد لتقويض القدرة القتالية للشعب الجزائري.[3]

---

[1] يحيى بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع والعشرين ثورات القرن التاسع عشر، طبعة خاصة، دار بصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 88.

[2] يحيى بوعزيز، المرجع نفسه، ص 32

[3] يحيى بوعزيز، المرجع نفسه، ص 47

ج. ثورة الشريف بوبغلة

انتهج الجنرال "كامو" (Camou) سياسة الأرض المحروقة والترهيب لإحباط ثورة بوبغلة؛ فقام بحرق قرية "أولاد سيدي يحيى العيدلي" وقرى "بني يعلى" عام 1851م لدعمهم الثورة. كما فرض على القرى المجاورة غرامات حربية واحتجز رهائن، مما أجبر العديد من القبائل (مثل أولاد يحيى، وأولاد عبد الله، وأولاد عياد) على طلب الأمان والتوقف عن مساندة الثوار.[1]

4.الحركات المناوئة للمقاومة الشعبية (العمالة الداعمة للاحتلال):

شكلت الاختراقات الداخلية والتحالفات التي عقدتها بعض الزعامات القبلية والأسر الإقطاعية ذات النفوذ مع الإدارة الاستعمارية الفرنسية عاملًا رئيسيًّا في إرباك صفوف المقاومات الشعبية وإفشالها. وقد تجسد هذا الدور الهدمي عبر عدة مراحل تاريخية:

أ. مقاومة الحاج أحمد باي (الشرق الجزائري)

واجه أحمد باي في قسنطينة، إلى جانب الزحف العسكري الفرنسي، مؤامرات داخلية من قبائل رفضت سلطته أو تحالفت مع المحتل؛ ومنها:

قبيلة النمامشة: التي كانت ثائرة منذ العهد العثماني وتعاونت مع الاستعمار قبل أن يخضعها الباي.

قبائل بني عمار (ضواحي القالة): رفضت تقديم الدعم ودفع الضرائب ولم تخضع إلا عام 1836م.

[1] Nil Joseph Robin, Histoire du Cherif Bou Barlla, Adolphe Jourdan librai-rie Editeur ,Alger,1884,pp65-66

قبائل زواغة، وأولاد خطاب، وبني مروان: والتي استمرت في تمردها ضد حكم الباي مما أضعف جبهته الدفاعية. [1]

ب. مقاومة الأمير عبد القادر (الغرب الجزائري)

تعرضت حركة الأمير عبد القادر لانتكاسات جراء الخيانة؛ أبرزها خيانة **مصطفى بن إسماعيل** (زعيم قبائل الزمالة والدوابر المخزنية)، الذي نقض بيعته للأمير وعقد اتفاقاً عسكرياً مع الجنرال "تريزيل" لمحاربته.

ج. ثورة الشريف بوبغلة والانتفاضات اللاحقة

أدى تحالف أعيان منطقة القبائل مع الجيش الفرنسي إلى إنهاء ثورة محمد بن عبد الله (بوبغلة)، حيث اغتيل القائد بوبغلة عام 1854م على يد "لخضر بن أحمد".

نماذج من الزعامات المحلية الموالية للاحتلال:

برزت أسر إقطاعية وشخصيات محورية لعبت دوراً وظيفياً لصالح فرنسا طيلة القرن التاسع عشر، ومنها:

فرحات بن سعيد في منطقة الزيبان.

بوعزيز بن قانة في بسكرة.

أحمد المقراني وابنه لخضر في مجانة وبلاد القبائل.

انقسام بيت أولاد سيدي الشيخ: حيث حارب جزء منهم أبناء عمومتهم الثائرين؛ ومن ذلك قيام **سليمان بن قدور** عام 1868م بقيادة قبائل "حميان" ضد الثوار، وشنّه هجوماً واسعاً في جانفي 1869م على زعيم الثورة "سي قدور ولد حمزة"، أسفر عن

[1] – فريدة قاسي، الدولة في فكر الأمير عبد القادر (1832–1847)، رسالة ماجستير، التاريخ الحديث والمعاصر، قسم تاريخ، جامعة قسنطينة، 1999، ص1

كسر شوكة الثورة ونهب مواشيها، ليكافئه الاحتلال بتعيينه "آغا" على البيض وحميان.[1]

5.الطابع الإقليمي المحدود للمقاومة الشعبية:

شكلت "المحلية" والعزلة الجغرافية باستثناء تجربة الأمير عبد القادر ذات الأبعاد المتميزة أبرز العوامل الهيكلية التي عجلت بإجهاض الانتفاضات الشعبية خلال القرن التاسع عشر؛ حيث انحصر نطاقها الميداني والبشري والعسكري ضمن حدود القبائل الثائرة.

وقد ترتب على هذا الطابع الإقليمي المحدود جملة من الانعكاسات الإستراتيجية:

-**الضعف العسكري والسرعة في الحسم:** أدت العزلة الجغرافية والبشرية إلى عجز معظم الثورات عن الصمود طويلاً، مما جعلها تنهزم في جولات خاطفة أمام الآلة العسكرية الفرنسية، وتعد **ثورة الزعاطشة (1848-1849م)** نموذجاً جلياً على ذلك.

-**تسهيل سياسة الحصار والاستنزاف:** أتاح الضيق الجغرافي للثورات الفرصة للجيش الفرنسي لتركيز قواته وتطويق بؤر المقاومة بيسر، ثم تسليط ترسانته القمعية لاستنزاف طاقة الأهالي على المقاومة في حيز زمني قصير.

-**الارتجال وغياب التنسيق:** أسفر انفراد زعماء القبائل باتخاذ قرار إعلان الثورة عن حرمانها من الوقت الكافي للاستعداد المادي واللوجستي، مما وقع بها في فخ التسرع والعفوية وغياب الأهداف الإستراتيجية الموحدة، وتعتبر **ثورة أولاد سيدي الشيخ الأولى** مثالاً حياً على هذا الارتجال.

[1] جيلالي صاري، محفوظ قداش، الجزائر في تاريخ المقاومة السياسية 1900-1954، الجزائر،1987، ص ص 115-119

-**الافتقار للتزامن الزمني والتكتيك الدفاعي المرن:** تسبب عدم تزامن الثورات وعزلتها في حرمانها من إمكانية تخفيف الضغط العسكري المتبادل، مما دفعها إلى استنزاف مقدراتها ضمن خطط دفاعية كلاسيكية غير مرنة حيث:

-راهن **الحاج أحمد باي** على أسوار قسنطينة عام 1837م، فسقط بايلك الشرق كاملاً بسقوط الأسوار أمام المدفعية الحديثة.

-اعتمد **الشيخ بوزيان** على التحصن بأسوار واحة الزعاطشة، مضحياً بميزة الانطلاق نحو حرب استنزاف واسعة النطاق في تضاريس الزيبان والأوراس الوعرة.[1]

6.غياب الدعم الخارجي والضغوط الإقليمية:

شكل افتقار المقاومات الشعبية الجزائرية خلال القرن التاسع عشر إلى ظهير استراتيجي ودعم خارجي فعال سواء من دول الجوار (تونس والمغرب) أو من الخلافة العثمانية عاملًا حاسماً في تقويض قدرتها على الاستمرار، حيث تحولت تلك الجبهات تحت وطأة الضغط والتهديد الفرنسي إلى قوى محايدة أو مناوئة للمقاومة. ويظهر ذلك جلياً من خلال ثلاثة مسارات:

أ. جبهة المغرب الأقصى ومقاومة الأمير عبد القادر

تأرجح الموقف الرسمي المغربي تجاه الأمير عبد القادر بين الدعم الحذر والصدام المسلح؛ فبعد انسحاب الأمير إلى المغرب سنة 1843م، تعرضت المملكة لضغط عسكري فرنسي مباشر أسفر عن هزيمة الجيش المغربي في **معركة إيسلي (أوت 1844م).**[2]

ترتب على هذه الهزيمة تحول إستراتيجي في الموقف المغربي تجسد في:

[1] رامي سعيدي،" قراءة في أسباب فشل المقاومات الشعبية في طرد الاحتلال الفرنسي من الجزائر"، قضايا تاريخية، جامعة أبوبكر بلقايد تلمسان، ع7، 2007، ص ص 138-137

[2] Pierre Albin, Les grands traités politiques: recueil des principaux textes diploi matiques de 1815 à 1914, 3eme Ed, Librairie Félix Alcan, Paris, 1923, p297_331.

- توقيع **اتفاقية "لالة مغنية" (مارس 1845م)** التي التزمت بموجبها المخزن بمطاردة الأمير. [1]

- تنامي مخاوف السلطان عبد الرحمن بن هاشم من شعبية الأمير، مما دفعه لمحاولة استدراجه واعتقاله، مما أجبر الأمير على العودة للجزائر أواخر 1845م.

- في ديسمبر 1847م، وتطبيقاً للاتفاقية، جرد السلطان جيشاً قوامها 50 ألف جندي لمحاربة الأمير، ودارت بين الطرفين معركة طاحنة أضعفت قوى الأمير عسكرياً، وجعلته يقع بين فكي كماشة (الجيش المغربي وقوات الجنرال "لامورسيير" الفرنسية على الحدود)، مما عجل بنهاية مقاومته.

ب. الموقف العثماني والتونسي ومقاومة الحاج أحمد باي

علق أحمد باي آمالاً كبيراً على الدعم العثماني لاستعادة الإيالة وحماية بايلك الشرق، ورغم رغبة الباب العالي في تقديم الدعم العسكري، إلا أن الضعف الهيكلي للإمبراطورية العثمانية حال دون ترجمة الوعود إلى واقع ملموس.

وقد تضاعف هذا العجز نتيجة الموقف التونسي؛ حيث تراجع باي تونس عن تقديم أي تسهيلات أو مساعدات لأحمد باي نتيجة الخضوع للتهديدات الفرنسية، وإطباق البحرية الفرنسية حصاراً عسكرياً حال دون وصول أي إمدادات، مما سرع بسقوط مقاومة الشرق.[2]

ج. مقاومة الشيخ بوعمامة والمخزن المغربي

تكرر السيناريو الجيوسياسي ذاته مع مقاومة الشيخ بوعمامة؛ فعند انسحابه إلى الأراضي المغربية طلباً للملاذ والدعم، واجهته قوات المخزن المغربي تنسيقاً مع الإدارة الاستعمارية ودخلت معه في مواجهات عسكرية عنيفة في عدة جبهات (مثل: جبل مكثر،

[1] – يحيى بوعزيز، ثورات القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ص ص 55-52.

[2] يحيى بوعزيز، المرجع نفسه، ص311.

بني سمير، تاغيت، وفرطاسة)، مما أدى إلى استنزاف قوته وإضعاف مقاومته حتى استسلامه.

7. غياب التنسيق والنزاعات البينية بين قادة المقاومات الشعبية:

تعددت العوامل التي حالت دون توحيد جبهة المقاومات الشعبية الجزائرية؛ ورغم تسجيل بعض التحالفات الميدانية المحدودة، إلا أنها لم ترتقِ إلى مستوى استراتيجية وطنية شاملة كفيلة بتحقيق الهدف الأسمى المتمثل في دحر الاحتلال واستعادة السيادة. ويمكن حصر المسببات الهيكلية والذاتية التي أدت إلى تشتت المقاومات وفشلها في النقاط التالية:

- **البنية القبلية المفتقرة للاندماج الوطني:** شكّل غياب وعاء وطني موحد أبرز العقبات، وهو امتداد للمخلفات السلبية للسياسة العثمانية التي اتسمت بإقصاء وتهميش الأقاليم الداخلية والجنوبية، مما عمّق النزاعات البينية والجهوية بين القبائل حتى قبل الغزو الفرنسي.

- **النزوع نحو الزعامة الفردية:** سادت ثقافة التنافس على النفوذ ورفض الانصياع للقيادات الأخرى بين شيوخ القبائل، حيث آثر العديد منهم خوض مقاومات منفردة ومستقلة، بل والدخول في صدامات مباشرة مع قادة بارزين كالأمير عبد القادر.

- **التنافس الطرقي والصوفي:** ألقى الصراع الأيديولوجي والسياسي بين الطرق الصوفية الكبرى (كالتجانية، والقادرية، والدرقاوية) بظلاله على حركة المقاومة، وتحول في كثير من الأحيان إلى صراع حول الشرعية والولاء والسلطة الروحية والزمنية.

- **محور الخلاف بين الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي:**

يمثل التباين بين الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي أحد أبرز النماذج التاريخية لغياب التنسيق القيادي، وهو موضوع حظي باهتمام واسع ونقاش مستفيض بين المؤرخين. وتؤكد الشهادات المعاصرة لتلك الفترة أن تحالف القطبين كان كفيلاً بإنهاء

الوجود الاستعماري؛ حيث تشير المراسلات الدبلوماسية للباب العالي (منها رسالة المبعوث التركي نوري أفندي بناءً على تقرير الخبير حسون الدغيس) إلى أن إنقاذ الجزائر كان رهناً بتجاوز الخلافات الشخصية والتعاون المشترك بين أحمد باي، والأمير عبد القادر، والأطراف التونسية.

ورغم وضوح معالم هذا الخلاف، إلا أن خلفياته تظل محاطة بالغموض نظراً لتضارب الروايات التاريخية حول ما إذا كان دافعه الطموح الشخصي، أو غياب التنسيق، أو أزمة الثقة المتبادلة.

وتكشف الرسائل السياسية لأحمد باي (كخطابه الموجه إلى "كامل باشا" سفير بروسيا) عن أزمة ثقة حادة تجاه الأمير، وصلت إلى حد التشكيك في شرعية مقاوِمته ووصف تحركاته بـــ "الإفسادية".[1] كما اعتبر الباي "معاهدة التافنة" (1837) مؤامرة فرنسية–قادرية تستهدف تقويض سلطته في بايلك الشرق (قسنطينة)، وهي المعاهدة التي استغلتها فرنسا للاستفراد بقسنطينة وإسقاطها.

بالمقابل، لم تكن نية الأمير عبد القادر من المعاهدة مناورة ضد أحمد باي، بل كانت خياراً مرحلياً واستراتيجياً لبناء أركان الدولة وتنظيم الجيش. ومع ذلك، كان الأمير ينظر إلى النخبة الكراغلة والأتراك (والتي يمثلها أحمد باي) باعتبارهم المسؤولين المباشرين عن الأزمات التاريخية التي مهدت للاحتلال الفرنسي، مما أفرز جداراً من الجفاء السياسي بين الطرفين.

وفي الختام، وظّفت الإدارة الاستعمارية الفرنسية بذكاء هذا التصلب في المواقف، واستغلت تمسك أحمد باي بشرعيته كوارث للنظام العثماني، فمارست سياسة المناورة عبر تقديم وعود واهية للباي لمنع تحالفه مع الأمير، في الوقت الذي تفرغت فيه عسكرياً

[1] صالح فركوس، تاريخ الجزائر ما قبل التاريخ إلى غاية الإستقلال (المراحل الكبرى)، دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005، ص ص 215–213

لضرب قسنطينة بناءً على هدنة التافنة، مما أدى في النهاية إلى إنهاك الطرفين ودخول المقاومة مرحلة التراجع والاستسلام.[1]

8. الاختراق الاستخباري وأدوار الوساطة في إجهاض المقاومة الشعبية الجزائرية

تعد اختراقات الجبهة الداخلية، والتوظيف الإستراتيجي لشبكات الوساطة والتجسس المحلية والأجنبية، من أبرز الأسلحة غير المتكافئة التي وظفتها الإدارة العسكرية الفرنسية لتفكيك حركات المقاومة الجزائرية خلال القرن التاسع عشر؛ حيث تجاوز دور الأقلية اليهودية الأبعاد الاقتصادية والمالية التقليدية ليتمركز في عمق المشهد الدبلوماسي والعسكري كحلقة وصل وظيفية خدمت المحتل الفرنسي. وقد تجلى هذا الدور بوضوح في هندسة الاتفاقيات والمناورات السياسية؛ إذ وظفت فرنسا وسيطين يهوديين، هما "مردخاي عمرو" و"بوشناق"، لتوجيه المفاوضات مع الأمير عبد القادر في معاهدة "ديميشال" عام 1834م، كما اعتمد الطرفان لاحقاً على المدعو "بن دوران" كقناة اتصال في معاهدة "التافنة" عام 1837م قبل أن يتفطن الأمير لتلاعبه السياسي ويستبدله. ولم يقتصر دور هذه الشبكات على الوساطة الدبلوماسية بل تعداه إلى التضليل التكتيكي؛ فحينما كان الحاكم العام "دبرمون" يستعد لشن الحملة العسكرية الثانية لإسقاط قسنطينة عام 1837م، أرسل التاجرين اليهوديين "ابن باجو" و"بوجناح" لطرح شروط تسوية تعجيزية ومطالبة الحاج أحمد باي بأموال، وكان الهدف الحقيقي من هذه المفاوضات هو كسب الوقت وشغل القيادة الجزائرية حتى ينتهي الجيش الفرنسي من شحن تعزيزاته اللوجستية وتطويق المدينة. ومن خلال احتكارهم لأدوار الترجمة والوساطة، تمكنت هذه العناصر من الاطلاع على الأسرار الإستراتيجية لكلا الطرفين واستغلالها لتعزيز نفوذهم المالي وحظوتهم لدى المنظومة الاستعمارية.

[1] حمدان خوجة، المرآة، تح: محمد العربي الزبيري، ط2، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص149

وبالموازاة مع شبكات الوساطة المحلية، شكل اعتماد قيادات المقاومة على بعض العناصر الأجنبية (النصارى) في مجالي الإدارة والتقنية العسكرية ثغرة استخبارية أدت إلى اختراقات وتخريبات حاسمة. ويبرز في هذا السياق الجاسوس والمترجم الفرنسي "ليون روش" كأحد أخطر نماذج الاختراق السياسي والعسكري؛ حيث ادعى اعتناق الإسلام والتحق بجيش الأمير عبد القادر بعد معاهدة التافنة، ونظراً لكفاءته الإدارية حاز على ثقة الأمير المطلقة ليُعيّن كاتباً خاصاً له ومطلعاً على مجالس الدولة السرية وبيت مالها، فاستغل منصبه لتسريب أسرار المقاومة للاحتلال، والتحريض بين القبائل، وتخريب القدرات القتالية للجيش من الداخل، وهو ما ظهر جلياً حين تولى قيادة فرقة الكراغلة وتعمد دفعهم لتبذير الذخيرة العسكرية أثناء حصار الأمير لعين ماضي ضد التجاني. ولم يختلف هذا السلوك التخريبي الممنهج عما قام به الخبير الألماني "شلوصر" الذي استعان به الحاج أحمد باي لتنظيم سلاح المدفعية والدفاع عن أسوار قسنطينة، حيث اعترف في مذكراته لاحقاً بتعمّده ضبط منصات المدافع وتصويب القذائف نحو الأعلى لتخطّي خطوط الجيش الفرنسي الغازي، مدفوعاً بوازع الانتماء الديني والسعي للانعتاق من الأسر. وتثبت هذه الشواهد التاريخية المجتمعة أن المقاومات الشعبية واجهت حالة انكشاف استخباري حاد عجل باستنزاف مقدراتها العسكرية وتقويض فرص صمودها الميداني.

9 . ارتباط المقاومات بالزعامات والاعتماد عليها:

شكلت شخصنة المقاومة وارتباطها العضوي بالكاريزما القيادية معضلة بنيوية في مسار الثورات الشعبية الجزائرية خلال القرن التاسع عشر؛ إذ كان غياب التأسيس المؤسساتي الممنهج للنيابة والوجاهة القيادية خارج الأطر العائلية الضيقة كخلافة الأمير عبد القادر لوالده محيي الدين أو توالي قادة أولاد سيدي الشيخ سبباً مباشراً في رهن مصير الثورة بمآلات قادتها. وبناءً على ذلك، تسبب استسلام الأمير عبد القادر والحاج

أحمد باي، واعتقال لالة فاطمة نسومر عام 1857م، في تصفية جبهاتهم عسكرياً وسياسياً. ويتجلى هذا الانكسار النسقي بوضوح في ثورة 1871م، حيث تسبب استسلام القيادة الروحية للإخوان الرحمانيين (الشيخ عزيز في 30 جوان، ثم شقيقه الشيخ أمحمد في 2 جويلية، وصولاً إلى والدهما الشيخ أمزيان بن علي في 13 جويلية 1871م) في انهيار الروح المعنوية للحاضنة الشعبية، مما أحدث أثراً ارتدادياً دفع القبائل للاستسلام المتوالي، مجهضاً بذلك أوسع انتفاضة جغرافية شهدتها البلاد بالرغم من وفرة مقدراتها البشرية.

غير أن كل أشكال المقاومات والانتفاضات التي عمت الجزائر وبالرغم من كثرتها لم يكتب لها النجاح للأسباب الآتية:

1- عدم التنظيم الجيد للمقاومة من حيث تحديد المبادئ والأهداف وحصر الإمكانات التي تستند إليها المقاومة عددا وعدة.

2 - ضيق مجال المقاومة أي فضاؤها أي عدم اتساع حجمها، مما يسهل مهمة جيوش الاحتلال في تطويقها والقضاء عليها.

3- قلة التنسيق بين فصائل المقاومة لتشكيلها من عدد كبير من القبائل التي كثيرا ما كانت تستهدف بمكر الاستعمار الفرنسي قصد إحداث الفرقة بينها.

4- تعبئة المقاومة لم تكن وطنية ولا عقائدية بل كانت ارتجالية محلية، كالرد على إهانة أو تقتيل أو مصادرة أملاك أو اغتصاب، عمل منفرد سرعان ما يعزل من طرف قوات الاحتلال ويقضى عليه.

5- قنوات تدعيم المقاومة منعدمة أو ضعيفة، فكل ما كانت متعددة ومتنوعة وسرية كانت مفيدة ومؤثرة في إرباك العدو.

6 - المقاومة إذا لم تكن شعبية ومتجدرة ويقودها المثقفون وينفذونها المؤمنون بها كان مالها الفشل العامل الذي كان ينقص أغلب المقاومات والانتفاضات الجزائرية.

ملخص الفصل

يستعرض هذا الفصل الإطار العام للمقاومات الشعبية الجزائرية (1830-1916م) باعتبارها رد فعل وطني ومستمر ضد المشروع الاستيطاني الفرنسي. ويتناول الفصل مفهوم المقاومة بتجلياتها الإيجابية القائمة على المواجهة العسكرية والدبلوماسية، والسلبية المتمثلة في الرفض المجتمعي للاندماج والمسخ الثقافي، مستعرضاً خصائصها البنيوية القائمة على المرجعية الدينية والروح القبلية. كما يتتبع الفصل الخارطة الجيوتاريخية لـــ 17 انتفاضة ومقاومة مسلحة امتدت زركشتها عبر ربوع الوطن؛ بدءاً من مقاومتي الأمير عبد القادر وأحمد باي وصولاً إلى انتفاضة التجنيد الإجباري. وينتهي الفصل بتحليل أسباب عدم النجاح الكامل لهذه الثورات في طرد الاحتلال، والتي تكمن في الاختلال الحاد في موازين القوى العسكرية، واتباع فرنسا لسياسة الأرض المحروقة، والإبادة الجماعية، وتفتيت البنية الاجتماعية عبر الإفقار والتجهيل وبث النزاعات القبلية.

الفصل الثاني

الفصل الثاني: جرائم الإستعمار في ثورة الزعاطشة

تمهيد

شهدت الجزائر منذ وطأت أقدام الاحتلال الفرنسي أرضها عام 1830م حراكاً نضالياً مستمراً، فلم يكن الدخول الكولونيالي نزهة عسكرية، بل واجهته بيئة وطنية رافضة للوجود الأجنبي. ومع مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وتحديداً في الفترة الممتدة بين عامي 1849 و1854م، دخلت السياسة الاستعمارية الفرنسية مرحلة جديدة من التغول والبطش، تزامنت مع إعادة تنظيم الإدارة الفرنسية ومحاولتها بسط نفوذها الكامل على المناطق الداخلية والصحراوية.

ولم يكن هذا التوسع ليمر دون تصادم عنيف مع الحواضر والواحات الجزائرية التي تمسكت بهويتها وحريتها؛ حيث شكلت هذه الفترة محطة مفصلية في تاريخ المقاومة الشعبية. فقد تجسد الصمود الرافض للاحتلال والسياسات الضريبية والجائرة في نماذج كفاحية أسطورية، لعل أبرزها مقاومة واحة زعاطشة عام 1849م بقيادة الشيخ بوزيان، ومقاومة مدينة الأغواط عام 1852م. وهي محطات لم تعكس فقط استبسال الإنسان الجزائري في الدفاع عن أرضه، بل كشفت أيضاً عن الوجه البشع والدموي للاحتلال الذي استعمل أبشع أساليب الإبادة والجرائم ضد الإنسانية لكسر شوكة هذه الانتفاضات.

أولا-أسباب الثورة وقيادتها

أسباب الثورة :

لهذه الثورة أسباب عديدة مترابطة ومتداخلة مع بعضها البعض يمكن حصرها في النقاط التالية :

1-لا شك أن أول سبب لهذه الثورة هو رفض الشعب القاطع للاحتلال الفرنسي وهو بذلك يعتبر من أقوى الأسباب وأهمها لكفاح الشعب الجزائري ومقاومته للاستعمار الدخيل على البلاد والعباد.

2-صدى الأحداث الخطيرة التي حصلت على الساحة الفرنسية ذاتها والمتمثلة في قيام الثورة الفرنسية لسنة 1848 وعزل الملك الفرنسي لويس فيليب والإطاحة بنظامه وقيام الجمهورية الفرنسية الثانية، كل ذلك أثر على الحياة السياسية بالجزائر فقد عزل الحاكم العام للجزائر الدوق دومال (Le Duc D'Aumale) ابن الملك لويس فيليب وتعويضه بالجنرال كافينياك (CAVAIGNAC) وذلك في 3 مارس 1848، ثم تلاه رحيل عدة كتائب من الجيش الفرنسي من الجزائر لتشارك في الثورة الفرنسية بفرنسا نفسها وتعمل على إخماد الفتن

وفي نفس الوقت إنتشرت أخبارا مفادها أن بريطانيا قد أعلنت الحرب على فرنسا وأنها تستعد لشن حملة عارمة على الإحتلال الفرنسي في الجزائر وقد وصلت هذه الأخبار الى منطقة الزيبان عن طريق العمالة البساكرة بالعاصمة والذين يعودون الى بلادهم من حين لآخر ، فأشاعوا هذه الأنباء المثيرة والتي فهمها أهل الزعاطشة على أن ساعة الخلاص والتحرر قد حانت فرفعوا لواء الثورة والجهاد .[1]

3-كان للظروف العسكرية التي عاشتها مقاطعة قسنطينة الدور الهام في تهيئة الفرص المواتية للشيخ بوزيان زعيم الزعاطشة لإعلان الجهاد ذلك أن جيوش المقاطعة قد جهزت لقمع الثورات المشتعلة هنا وهناك ، في كل من الزواغة وبني يعلى وبني مليكش بجبال جرجرة ..... وثورة أولاد دراج بالحضنة وأولاد فرج بمنطقة بوسعادة وغيرها ، وقد أدى ذلك الى تناقص عدد القوات الفرنسية المرابطة بمركزي باتنة وبسكرة التي لم

[1] Paul AZAN, Conquete et pacification de l'Algérie, Paris, sans date , p. 396

يزد عددها عن 800 رجل بالإضافة الى غياب قائدهم سان جرمان عن دائرة بسكرة فاستغل الشيخ بوزيان كل الظروف لإعلان حركته الجهادية .[1]

4-أمل الشيخ بوزيان في مواصلة الثورة التي قادها الأمير عبد القادر طيلة سبعة عشر عاما ، ذلك أنه كان تابعا لدولة الأمير ، وكان يشغل منصب الشيخ علي واحة الزعاطشة ضمن موظفي إدارة الأمير بالمنطقة . وتذكر بعض المصادر التاريخية أنه كان من المرابطين والأشراف وأنه كان محاربا وشجاعا ومن أحذق الرماة و أن سمعته كانت واسعة وشخصية محترمة وقد حارب ضد جنود الحاج أحمد باي خلال حصار الزعاطشة سنة 1831 فضلا عن نفوذه المالي .[2]

ورغم إستعمال العدو كل الوسائل الجهنية من أجل معاقبة الثوار والمجاهدين ليكونوا عبرة للآخرين ... كالإعدام والتعذيب والمصادرة والإتلاف والحرق .. وحتى الترويض والتدجين وشراء الذمم .. فإن شعلة الثورة لم تنطفئ بل إستمرت مرفوعة يسلمها كل ثائر الى سلفه ، لذلك فإن الشيخ بوزيان قد أخذ المشعل عن الأمير عبد القادر لمواصلة الكفاح في سبيل الله والوطن .

5-انتشار الروح الدينية والوطنية للحفاظ على كيان الشعب العربي المسلم في الجزائر، الذي بدأ يتعرض للتحطيم والقضاء على شخصيته الوطنية من طرف السياسة الفرنسية في الجزائر، ذلك أن المواجهة ليست عسكرية فقط بل هي حرب حضارية أيضاً.

كما أن للوازع الديني دوره الفعال في تعبئة المجاهدين، فقد اعتمد الشيخ بوزيان في كسب ثقة الملتفين حوله، وتقوية عزيمة مريديه وترسيخ إيمان كامل السكان بما كان يدعو إليه من إعلان الثورة مؤكداً وهذا حسب ادعاءه لرؤية النبي محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام في المنام ، وأن الرسول الكريم قد قال له بأن عهد الكفار قد انتهى، وسيبدأ عهد المؤمنين، وأنه مكلف بمجاهدتهم وإخراجهم من الجزائر.

6-لا شك أن للدافع الاقتصادي الدور الهام في اشتعال هذه الثورة حيث ارتفعت الضرائب على النخيل ابتداء من شهر مارس 1849 من 0.25 فرنك إلى 0.40 فرنك للنخلة الواحدة، والملاحظ أن هذا الارتفاع في الضرائب مبالغ فيه أدى إلى تذمر السكان ،

[1] Paul GAFFAREL, L'Algérie Conquise depuis la prise de Constantine jusqu'à nos jours, Paris, 1886, p.169

[2] Le commandant SEROKA, « le Sud constantinois de 1830 a 1855 in Revue Africaine, no 56 (1912) p 504

كما ألغت السلطات الفرنسية جميع الامتيازات القديمة للمرابطين، والقاضية بإعفائهم من الضرائب، ومن بينهم الشيخ بوزيان الذي استغل هذه الزيادة في إثارة السكان ضد الاحتلال.

ومهما يكن فإن الظلم الاقتصادي هو من الدوافع الهامة لاشتعال الثورة، غير أنه ليس بالدافع الأساسي لأن الجزائريين يثورون غالباً بدافع الشرف والدين والوطن، ويدل على ذلك تضامن سكان الجهة مع الثوار.[1]

قيادتها :

إن معلوماتنا عن الشيخ محمد بوزيان قليلة جدا . وكل مانعرف عنه الآن هو أنه كان من موظفي إدارة الأمير عبد القادر بالمنطقة بلقب (شيخ) على واحة الزعاطشة وإن بعض المصادر تذكر أنه كان من المرابطين والأشراف . وأنه كان محاربا وشجاعا ، ومن أحسن الرماة ، وأن سمعته كانت واسعة ومحترمة ، وأنه حارب ضد جنود الحاج أحمد هناك سنة 1831 ويبدو وأنه كان صاحب سمعة ونفوذ ، وأنه كان متقدما في السن عند استشهاده سنة 1849، مادام قد حارب منذ سنة 1831 وكان عمر ابنه حوالي عشرين سنة عند استشهاده أيضا . ومن نفوذه أنه استطاع أن يجند للثورة عددا من المرابطين والمجاهدين في أماكن بعيدة نوعا ما ، مثل الخنقة وبوسعادة وأولاده جلال ومسعد . وقد استعمل هؤلاء نفوذهم الديني وشجاعتهم العسكرية أيضا (مثل الشيخ الدرقاوي والشيخ عبد الحفيظ ابن شبيرة) ، وقد إستشهد أكثرهم في المعارك عندئذ حتى ان العدو إستغرب كيف أنه لم يطلب أي واحد من متعصبي الشيخ بوزيان كما كان العدو يطلق على المجاهدين الأمان ورضوا أن يموتوا جميعا تحت الأنقاض والسلاح في أيديهم ولا شك أن ذلك راجع الى الإيمان بالقضية التي آمنوا بها ، وهي العيش في حرية وسلام بعيدا عن الدخيل الكافر .[2]

---

[1] ابراهيم مياسي: من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، دار النشر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1999، ص ص 87-89

[2] ابو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1900، دار الغرب الإسلامي، الجزء الأول، ص ص 331-332

ثانيا : مجريات الثورة والحصار

سنة 1833 كان أحمد باي قد أخضع كل الواحات المحيطة ببسكرة ماعدى واحة الزعاطشة التي تمكن الشيخ بوزيان من حمايتها ومنع الباي من السيطرة عليها وهذا ماجعل الشيخ بوزيان يتمتع بنفوذ كبير في المنطقة

كانت أولى خطوات الشيخ بوزيان مهاجمة ثكنة العروشين سكيكدة وقسنطينة بهدف إرباك قوات العدو وإذ سرعان ماتوجه هيرييون قائد مقاطعة قسنطينة إلى سكيكدة لمواجهة الثوار، وبعد فترة قصيرة تم إعلان قيام الثورة وبدأت دعوة القبائل لدعم الثورة وسرعان ماحصل على تأييد كل من الحضنة، الزاب الغربي وواحتي ليشانة وغيرهم.[1]

أمام تواصل المقاومة لم يعد أمام الفرنسيين سوى حصار الزعاطشة والإنتقام من المقاومين حيث بدئوا بقصف أسوار البساتين المحيطة لأحداث فجوة في جدرانها. ووقعت فيما بين 7و8 أكتوبر 1949 عدة معارك قتل فيها عدد من الفرنسيين وأصبح على الفرنسيين اقتحام اسوار القرية الذي حققوه ولم يكن لهم ذلك إلا بفضل المدفعية التي إستخدمها للتغلغل داخل الواحة التي أغرتهم وثرواتها غير أنهم وجدوا عائقا جديدا تمثل في خندق مليء بالمياه يحيط بالقرية. وفي الليل تمكن ثوار القرية الذين تسللوا الى معسكر العد ومن إلحاق عدة خسائر به.

وأمام نقص الرصاص إستخدم الشيخ بوزيان نواة التمر يجمع كل ثلاث منها مع بعض في ورقة بسيطة من الرصاص وبالمقابل كانت الإمدادات الفرنسية متواصلة حيث جاء الكولونيل على رأس عدد كبير من القوات وهكذا قوبلت رصاصات التمر بقنابل المدافع وسرعان ما بدأ بقصف الأسوار التي كان بداخلها حوالي ستة آلاف محارب بينما كانت قوات العد وتفوقهم بأكثر من الثلثين، ومما عجل الهجوم الفرنسي الكلي على المنطقة وانتشار داء الكوليرا بينهم وإصابة العديد من القوات بالنيران التي واجهتهم في الفتحات التي استخدموها للنفوذ الى الواحة.

[1] العربي إسماعيل، مجلة الدراسات التاريخية، الترتيبات التكتيكية لحصار قرية الزعاطشة، أكتوبر نوفمبر 1849، العدد 9، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص 159

غير أن إحداث ثلاث ثغرات حول الواحة عجل بإقتحامه وبدأت المقاومة داخل القرية أين أبدت قوات بوزيان بسالة كبيرة وإضطرت القوات الفرنسية الى محاصرة كل منزل بسبب تواصل إطلاق الرصاص.[1]

ثالثا: مجزرة 26 نوفمبر 1849 وإبادة سكان الواحة (شيوخا، نساءا، أطفالا):

في صبيحة يوم 26 نوفمبر 1849، وبعد إتمام الاستعدادات الأخيرة، اصطفّت القوات الفرنسية على الجبهات الثلاث أمام الفتحات التي أحدثتها المدفعية، وفي حدود الساعة الثامنة وقف الجنرال هربيون أمام الفتحة الوسطى لإعطاء إشارة الهجوم. وبمجرد صدور الإشارة، بدأت الفرق الثلاث اقتحام القرية في آن واحد، فانطلق الجنود نحو الفجوات تحت نيران المدافعين.

في الجهة اليمنى، شكّل العقيد كانروبير كومندوساً من 16 فرداً كانوا من أوائل من ولجوا الفتحة، غير أنه وبمجرد وصول الجنود إلى جدران المنازل، سقط عدد منهم قتلى تحت رصاص المدافعين، ولم ينج العقيد كانروبير إلا بأعجوبة، وهو ما عبّر عنه في مذكراته بقوله:

"ولجنا الفتحة ونحن نزحف على أربع، تسلقنا، تعثرنا ونحن نتقدم... القسم الأكبر من مرافقي قُتل، ولكن الباقين واصلوا الزحف وأنا على رأسهم حتى دخلنا القرية [2]

ويضيف واصفاً طبيعة القتال داخل الواحة:

"هنا أزقة ضيقة ومنازل منهارة وحواجز... الطلقات النارية تدوي من كل مكان... كان يجب علينا تفتيش المنازل واحداً واحداً... كنا نفقد من رفاقنا كلما تقدمنا، ولكن كنا نطعن بحرابنا كل من يعترض طريقنا[3] "...

ومن جهته، تمكن العقيد دي لورمال من الدخول عبر الفتحة اليسرى، غير أنه واجه مقاومة قوية أدت إلى سقوط عدد كبير من جنوده، كما أُصيب هو نفسه بجروح. وقد وصف أحد الجنود تلك اللحظات بقوله:

---

[1] جيلالي حورية، الإستراتيجية الإستعمارية ضد مقاومة واحة الزعاطشة عام 1849، مخبر الدراسات المغاربية وبناء الدولة الوطنية، مجلة المرأة، العدد 4، ديسمبر 2015، ص 100

[2] A, O.M, 10 H 76 , Journal des opérations de la colonne expéditionnaire des Ziban, par le colonel Borel de Bretizel, Constantine, 14 novembre 1849

[3] المرجع السابق

..."قطعنا ثلث المسافة دون أن نتلقى طلقة، كان العرب ينتظروننا... ثم بدأت الحواجز... وكان علينا المرور من منزل إلى آخر بالمشي فوق الأسطح [1]

أما في الوسط، فقد اندفع العقيد دي بارال بدوره بعد أن رأى زميليه يقتحمان من الجانبين، ودخل في معركة مميتة خسر فيها عدداً كبيراً من جنوده. وبعد حوالي نصف ساعة، التقى قادة الفرق الثلاث في ساحة القرية، معلنين نجاح المرحلة الأولى من الاقتحام، غير أن المعركة الحقيقية كانت لا تزال في بدايتها.

فبعد عجز المدافعين عن صدّ القوات من الخارج، لجؤوا إلى التحصن داخل المنازل، وبدأوا في إطلاق النار من أماكن مخفية، ما اضطر الجنود الفرنسيين إلى تفتيش البيوت بيتًا بيتًا، وهو ما عرّضهم لخسائر متواصلة. وقد كتب الجنرال هربيون في تقريره:

"يجب علينا تطويق ثم اقتحام كل منزل... لا ننزل إلى البيوت إلا عبر فتحات مظلمة... وهناك نتلقى طلقات نارية من قرب من عدو عازم على فقدان حياته [2]

وأمام صعوبة القتال داخل البيوت، لجأ الجيش الفرنسي إلى استعمال المتفجرات، حيث جاء في شهادة الرقيب ريبس:

"لقد أدركنا أخيراً أهمية المتفجرات... وسرعان ما بدأ دويها، وأصبحنا لا نرى إلا المنازل تنهار على من فيها... وكانت الجدران المنهارة تكشف لنا عن مخابئ الأهالي "...

وبعد كل انفجار، كان الجنود يندفعون للقضاء على من بقي حيًا، حيث أشار نفس المصدر إلى أنهم "كانوا ينهون كل من يعترضهم بحراب بنادقهم"[3] . وقد بلغ العنف ذروته مع تصرفات بعض الجنود، خاصة الزواف، الذين وصفهم بعض المؤرخين بأنهم كانوا "ينقضّون على كل من بقي حيًا "

وقد أثارت هذه الأعمال استياء حتى بعض الفرنسيين، حيث كتب أحدهم:

"لو استحضرنا الوضع بكل هدوء، فلن نتردد في الإقرار بأن انتصارنا كان مخزيًا ، كما صرّح آخر: "إن شرف المهزوم يسود نصر الغالب[4] ."

---

[1] أوعثماني ستار : ثورة الزعاطشة 1849م، الجزائر، ترجمة محمد العربي حرز الله، ص 304

[2] A.M.G, 1 H 131 , Rapport sur les opérations de la collonne expéditionnaire des Ziban, Zattcha, le 28 novembre 1849

[3] A.M.G, 1 H 211, Histoire de la colonne des ziban par le sergent -major Ribes, cahier2 , chapitre 4

[4] Pelissier de Reynaud E, Annales algériennes , 3 vol Dimaine, Paris, 185, p 318

أما الشهادة الأكثر إثارة، فهي التي سجلها شارل بوديكور، حيث قال:

..."الزواف في نشوتهم بالنصر، كانوا ينقضّون بوحشية على الخلائق... أحدهم قطع ثدي امرأة وهي تتوسل، وآخر تناول طفلًا من رجليه ورطمه بقوة على جدار فتهشمت جمجمته "...

وبعد إحكام السيطرة، تم القضاء على من تبقى من السكان، حيث شملت عمليات القتل جميع الفئات دون استثناء: شيوخ، نساء، وأطفال. وتشير المعطيات إلى أن حوالي 800 شخص قُتلوا داخل الواحة، دون احتساب من بقوا تحت الأنقاض أو الذين قتلوا خارجها أثناء محاولتهم تقديم المساعدة[1]

كما أن عدداً كبيراً من الضحايا ظل مجهول الهوية، غير أن المعطيات تشير إلى أنهم كانوا ينتمون إلى أعراش وقرى مختلفة من الجنوب القسنطيني والصحراء، وهي ظاهرة فريدة لم تعرفها منطقة أخرى في تلك الفترة

أما الخسائر الفرنسية يوم 26 نوفمبر، فقد بلغت 43 قتيلًا و175 جريحاً، بينما ارتفعت خلال الحصار إلى مئات القتلى والجرحى، إضافة إلى وفيات بسبب الكوليرا [2]

وبعد انتهاء المعركة، أمر الجنرال هربيون بمصادرة أملاك السكان، كما تم توزيع جزء منها على من ساندوا فرنسا [3]وفي الوقت نفسه، شرع الجيش في تدمير الواحة بالكامل، حيث هدمت المنازل والمساجد والبساتين، حتى اختفت الزعاطشة من الوجود.

وتصف إحدى الشهادات اللاحقة المكان بقولها:

..."لم يبق إلا أكوام من التراب... شجرة قطعت من أصولها... هذا ما بقي من مدينة الزعاطشة"...

وقد أدى هذا الدمار إلى حالة من الذهول في المنطقة، حيث سارعت العديد من القبائل إلى إعلان استسلامها وطلب الأمان، خوفاً من التعرض لنفس المصير[4]

[1] ثورة الزعاطشة، المرجع السابق، ص 312

[2] ثورة الزعاطشة، المرجع السابق، ص 314

[3] A.O.M, 10 KK 30, un rapport du commandant de la subdivision de Batna, 11 juillet 1850

[4] Monographie de biskra et du Sahara de Constantine, Bulletin de la société géographique d'Alger et de Constantine, 1921, p 591

وهكذا، انتهت أحداث 26 نوفمبر 1849 بإبادة شبه كاملة لسكان الزعاطشة، وتدمير واحتها تدميراً كلياً، في واحدة من أعنف المجازر التي عرفتها الجزائر خلال القرن التاسع عشر.

وبعد هذه الأحداث الدامية التي شهدتها الزعاطشة يوم 26 نوفمبر 1849، والتي مثّلت ذروة المواجهة بين القوات الفرنسية ومقاومة الشيخ بوزيان، تحولت العملية من مجرد انتصار عسكري إلى انتقام واسع النطاق استهدف السكان ومحيطهم.

فقد قامت القوات الفرنسية، بدافع الانتقام، بمحاصرة كل المحيط الخاص بالقبيلة، حيث أشرف الجنرال هربيون على العملية، في حين تولى العقيد كانروبير قيادة جزء من القوات التي أحكمت الحصار على الواحة، قبل أن يتم اقتحامها وتدميرها بشكل شبه كلي، رغم المقاومة الباسلة التي أبداها السكان[1]

ومع دخول القوات الفرنسية إلى الواحة يوم 26 نوفمبر 1849، تعرض السكان لعمليات قتل جماعي، أعقبتها ممارسات انتقامية تمثلت في التمثيل بالجثث، حيث أمر الجنرال هربيون بقطع رأس الشهيد الشيخ بوزيان، وتعليقها على باب المعسكر، كما تم قطع رأس ابنه، ورأس الشيخ موسى الدرقاوي، في مشهد كان الغرض منه الترهيب والتنكيل بالثائرين

وقد انعكست هذه المجزرة بشكل مباشر على أوضاع السكان، حيث انتشرت المجاعة، وتم القضاء على مصادر العيش، خاصة مع تخريب بساتين النخيل وإتلاف الموارد الزراعية. كما عاش الناجون حالة من الرعب نتيجة هول المجزرة وبشاعتها، وما رافقها من أعمال قتل وتنكيل

ويُبرز هذا الحدث حجم المعاناة التي عاشها الجزائريون تحت وطأة الاحتلال الفرنسي، حيث لم تتوقف أعمال العنف عند حدود المعركة، بل تجاوزتها إلى جرائم إبادة جماعية مست مختلف فئات المجتمع. وقد تركت هذه الممارسات آثاراً نفسية عميقة، خاصة مع ما تعرض له الأطفال والنساء من مشاهد قاسية تفوق الوصف

[1] فاطمة الزهراء شبلي: النزعة الثورية وأساليبها الفنية في القصيدة العامة: ديوان مغذي الأرواح ومسلي الأشباح: ل التومي الحاج سعيدات أنموذجا، (ماجيستير)، جامعة الحاج لخضر، باتنة الجزائر، 2006-2007، ص 30

كما أن هذه الجرائم، التي ارتكبها الجنود الفرنسيون، تعكس طبيعة السياسة الاستعمارية القائمة على القمع والتخويف، حيث كان الهدف منها ليس فقط القضاء على المقاومة، بل أيضاً زرع الرعب في نفوس السكان لمنع أي تمرد مستقبلي[1].

رابعا: مظاهر الجرائم الإستعمارية (قطع الرؤوس وسياسة الأرض المحروقة)

إنّ الشيخ بوزيان، إلى آخر رمق من حياته، استطاع أن يحافظ على موقف بطولي مشرّف طوال مدة القتال الطويل الذي خاضه ضدّ الفرنسيين. لقد شارك بكل اعتزاز وهو محاط بعائلته وذويه في الدفاع بقوة عن قريته أثناء معركة 26 نوفمبر 1849 الحاسمة. وبموته فقط، تحقق الانتصار الفرنسي على الواحة.

ولقد حارب الشيخ بوزيان في ذلك اليوم المشهود محاطًا بحوالي 100 من أنصاره من أحد المنازل ذات الجدران المسننة بالزعاطشة. وبوشاية، تعرّف القائد لافراندي (Lavrande Commandant)من الفرقة الثانية على مكان تواجد الشيخ بوزيان، فقام بتطويق المنزل بإحكام.

ولقد حاولوا الوصول إلى المنزل متسلّقين جدرانه بدون جدوى. أمّا لافراندي، فقد اقترح توجيه قطعة مدفعية نحو المنزل الذي يختبئ فيه الشيخ ورشقه بقذائف قوية. لكن رماة المدفع قُتلوا وهم يحاولون تصويب القطعة نحو الدار. بعد ذلك اهتدى القائد لافراندي إلى المتفجرات، فاستخدم عبوة ناسفة لهدم الجدران. وبعد تنفيذ انفجارين اثنين وتسجيل خسائر إضافية في صفوفه، تمكن من إسقاط الجدار الأمامي للدار والكشف عن المدافعين داخل حجرة.

وكانت هي اللحظة التي اختارها الشيخ بوزيان للخروج، كما كتب القائد لافراندي في تقريره العسكري المؤرخ في 27 نوفمبر، الذي يقول فيه:

"بعد ظهور بوزيان، أمرت بوقف النار وألقيت عليه القبض بواسطة جنديين قدماه أمامي فانتزعت منه سبحته ومسدسه وحزام ذخيرته وبينما أنا أفعل، أرسلت ضابطًا ليأتي بأوامر الجنرال، وفي الوقت نفسه أرسلت جنوداً إلى المكان الذي كان يختبئ فيه بوزيان

[1] نصر الدين براشيش : المقاومة في الشعر الجزائري الحديث والمعاصر "ثورة الزعاطشة نموذجا "، جامعة أدرار، مجلة الحقيقة، العدد 43، 29 مارس 2018، ص 131

مع زوجته وابنيه (الطفل الصغير وبنته الجميلة وولده) وعشر نساء وحوالي 150 من أعوانه. وفي لحظة قصيرة تم إعدامهم جميعاً".

وأما الجنرال هربيون فقد أعطى الأوامر بـــ"إعدام بوزيان فوراً"، فنُفذ الأمر بسرعة. وعلى حسب ضباط حضروا مراسم تنفيذ الإعدام، فإن الشيخ لما علم بأمر قتله أبدى هيئة تليق بمقامه وبهيئته كقائد ثورة، وقال بكل هدوء إنّه أدى هذا الواجب وهو غير نادم على أي شيء.

وعلى حسب شهادة شارل بوشي، فإن الشيخ بوزيان قال بالحرف الواحد:

"لقد كنتم أنتم الأقوى، لكن الله أقوى منكم... الله أكبر وما قدّر فعل ".

وأما أحد شهود العيان ممّن حضروا إعدام الشيخ، فقد كتب:

..."كنت حاضراً عند موت ذاك الشيخ، أعني بوزيان، وهو أقوى مشهد رأيته. لقد كان ينتظر بكل هدوء أن يُقتل، ولما علم أنه سيموت، نهض بكبرياء بكامل جسمه، ونظر بشزر إلى الزوّاف المكلّفين بإعدامه. إن هذا الرجل، مع ألف من المدافعين القائمين معه، والفرق التي كانت تأتي لتساعده بالتداول، استطاع أن يردع قواتنا لمدة 53 يوماً (هكذا كتب) بلا مدافع ولا متفجرات، وكان سلاحه القوي هو التعصب! فإذا كان من حق كل أمة أن يكتب لها مؤرخوها صفحة جميلة من تاريخها، فإنني أكتب لكم تحت تأثير اللحظة، ولكنني أؤكد أنها كانت غاية في الإثارة"...

ولقد سقط الشيخ تحت الرصاص ليلقى ابنه اليافع البالغ 17 سنة من العمر نفس المصير، ككل الذين لم يُقضَ عليهم في الهجوم. ولم يكتفِ الجنرال هربيون بقتل الشيخ، بل أمر بقطع رأسه وتعليقها على حربة بندقية، كما عُلّقت رأس ابنه على الدبوس، ورأس الشيخ موسى الدرقاوي على الماسورة[1].

ولقد كانت الرؤوس الثلاثة في البداية محل عرض بالمعسكر الفرنسي، ثم بسوق بسكرة، وذلك: "لإقناع المشككين المشدّدين بموتهم وليكونوا عبرة لمن يريد أن يحذو حذوهم"، على حد قول هربيون.

[1] كمال بن صحراوي، معجم المقاومة الجزائرية منذ بداية الإحتلال الفرنسي حتى منتصف القرن 19 شخصيات أماكن أحداث معارف، الناشر ألفا للوثائق، عمان، الأردن، 2020، ص 105

بعد ذلك حُفظت رأس الشيخ بوزيان بقسنطينة، ثم حُولت فيما بعد إلى متحف باريس (Muséum)، حسب الدكتور ربوت(Rebout Docteur) ، الذي ذكر ذلك في رسالة منشورة بالمجلة الإفريقية سنة 1884، حيث بيّن ظروف تحويل الرؤوس إلى فرنسا :

"إن رأس بوزيان التي قطعت وعلقت على حربة بندقية إثر انتهاء حصار الزعاطشة، حسب شارل فيرو، قد احتُفظ بها على غرار رأس بوبغلة، ورأس الشريف الذي قتل أثناء معركة وقعت على أبواب تبسة من طرف الملازم جابي Japy) (Lieutenant، ثم أدرجت ضمن قائمة المجموعات الأنثروبولوجية لمتحف باريس. وأنا من أرسل هذه الغنائم النفيسة، وكان كل رأس منها مصحوباً ببطاقة تحمل اسم صاحبها"...

ومن جانبنا، نتساءل عن سبب احتفاظ الفرنسيين برأس بوزيان. هل كان هذا لمجرد ذكر انتصارهم عليه؟ لأن الشيخ تسبب لهم في مشاكل عويصة نتجت عنها خسائر كبيرة في الأرواح؟ ولكن لم يكن الشيخ بوزيان وحده من لقي هذا المصير، إذ إن المتاحف الفرنسية بالجزائر كانت قائمة خلال القرن التاسع عشر لم تكن تخلو من بقايا مقاومين جزائريين.[1]

[1] أوعثماني ستار، المرجع السابق، ص ص 307-311

ملخص الفصل

يتناول هذا الفصل مرحلة مفصلية من تاريخ الجزائر (1849–1854م)، والتي تميزت بتصاعد البطش الاستعماري الفرنسي الساعي لإخضاع المناطق الداخلية والصحراوية، في مقابل هبة شعبية رافضة للاحتلال وسياساته الجائرة. ويسلط الضوء على مقاومتي زعاتشة (1849م) والأغواط (1852م) كنموذجين بارزين للاستبسال والصمود، كاشفاً في الوقت ذاته عن حجم الجرائم الدموية وسياسة الإبادة التي انتهجها المستعمر لكسر إرادة المقاومة، وذلك بهدف تحليل ظروف هذه المواجهات وأبعادها التاريخية.

الفصل الثالث

الفصل الثالث: جرائم الإستعمار في مقاومة الأغواط

تمهيد:

عرفت الجزائر خلال القرن التاسع عشر موجة واسعة من المقاومات الشعبية ضد الاحتلال الفرنسي، الذي انتهج سياسة توسعية قائمة على السيطرة العسكرية والقمع والتنكيل بالسكان. وقد امتدت هذه المقاومات إلى مختلف مناطق الوطن، بما فيها المناطق الصحراوية التي كانت تتمتع بأهمية استراتيجية واقتصادية كبيرة بالنسبة للإدارة الاستعمارية. ومن بين أبرز هذه المقاومات مقاومة مدينة الأغواط سنة 1852، التي تُعد من أهم المحطات التاريخية في تاريخ الجنوب الجزائري لما شهدته من بطولات شعبية ومجازر وحشية ارتكبها الاستعمار الفرنسي في حق السكان المدنيين.

وقد سعت فرنسا إلى احتلال الأغواط باعتبارها بوابة للصحراء ومركزاً حيوياً يربط الشمال بالجنوب، إضافة إلى أهميتها العسكرية والتجارية، الأمر الذي جعلها هدفاً رئيسياً ضمن مخطط التوسع الاستعماري نحو الصحراء وإفريقيا. إلا أن سكان المدينة رفضوا الخضوع، فواجهوا القوات الفرنسية بمقاومة شديدة رغم قلة الإمكانيات، مما دفع الجيش الفرنسي إلى ارتكاب جرائم مروعة تمثلت في القتل الجماعي والتخريب والحرق والتهجير، وهي الجرائم التي بقيت راسخة في الذاكرة الشعبية تحت اسم "عام الخلية."

وعليه، يهدف هذا الفصل إلى دراسة جرائم الاستعمار الفرنسي في مقاومة الأغواط، من خلال التطرق إلى أسباب المقاومة، وأهم أحداثها، ثم إبراز المجازر والانتهاكات التي تعرض لها سكان المدينة، إضافة إلى النتائج التي خلفتها هذه الجرائم على المستويين الإنساني والتاريخي.

أولا: اسباب مقاومة الأغواط

تكمن أسباب مقاومة الأغواط في:

1. الأهمية الإستراتيجية.

يعود تأسيس الأغواط إلى حقب تاريخية قديمة تبدأ مع المعطيات الأولى و الضئيلة لإقليم جيتوليا من العهد الروماني حتى الفتح الإسلامي . و لم تحدد الدراسات التاريخية بالضبط متى تأسست الأغواط، حيث كانت عبارة عن ضيعة تسكنها قبائل زناتية (مغراوة)، التي رفضت الخضوع للسلطة الرومانية و لم تقبل اعتناق المسيحية رغم العروض العديدة، بينما رحبت بالإسلام منذ الوهلة الأولى لأن هذا الدين الجديد يتلاءم و طبيعتهم و ينسجم مع مزاجهم، فأدركوا بفطرتهم أنه شريعة الله في الأرض[1].

و يمكن ترجيح تأسيس الأغواط إلى السنوات الأولى من قدوم بني هلال سنة 1045م إلى المنطقة. ونزحت إليهم مجموعة القبائل الأخرى كأولاد سالم الذين هاجروا من قورارة الجنوب الغربي الجزائري)، واستقروا بخيامهم على ضفاف وادي جدي حيث التقوا بفرع الأغواط الكسال والبدارة، وقد جلبتهم إلى هذه المناطق وفرة المياه والكلأ. بعد أن استقر السكان وتجسدت ملامح مدينة الأغواط أصبحت هذه المنطقة عبر الزمن ملجأ للفارين من المشاكل السياسية والدينية، ودائمة التأثر بما يحدث في الشمال سواء في المنطقة التلية أو الهضاب العليا[2].

لم تعرف منطقة الأغواط الخضوع الإرادي لأي ممن مروا على حكمها، فالأتراك الذين عملوا إلى أساليب التخويف الفرض الطاعة على السكان، كانت علاقتهم بسكان المنطقة غير وطيدة، وبقي الحكام الأتراك يتنازعون السيطرة على الأغواط مع السلطة المغربية،

[1] محمود علالي، التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية (الاغواط أنموذجا)، مجلة العلوم الإنسانية و الحضارة، المجلد01، العدد 01، جامعة عمار ثليجي، الجزائر، جانفي 2019، ص ص 136-138.

[2] - Henri Lhote,Les gravure rupestres de l'atlas saharien Monts de Ouled Nails et régions de Djelfa,(Office du parc national du Tassili,Djanet,1984), p.143.

- Voir aussi:Maumen, Notes sur les dessins et peintures rupestres relevés dans la région entre Laghouat et Géryville,(bulletin archéologique, Alger 1901).

-Et aussi: Ginette Aumassip,Trésors de l'atlas, préface de Makarninan Makagiansar (Entreprise nationale du livre, Alger1986) pp 29,43,88

ففي عهد البايلر باي التي أسسها خير الدين بربروس في بداية القرن السادس عشر الميلادي، فقد امتدت سلطة الدولة الجزائرية حتى الأغواط ضمن بابلك التيطري الذي نظمه حسن باشا ابن خير الدين، وعين عليه سنة 1548 رجب باي كأول باي على التيطري وعاصمتها المدية. وفي عهد يوسف باشا (1647–1650) قام السلطان المغربي مولاي محمد بالسيطرة على تلمسان و وجدة و وصلت سيطرته حتى عين ماضي والأغواط، التي لم تخضع إلا لفترة مؤقتة، مما أدى إلى مجيء السلطان المغربي مولاي عبد المالك بنفسه سنة 1708 و إخضاع المدينة بعد قتال مرير و محلول عام 1727 م عادت الأعواد إلى سلطة العثمانيين بعد تدخل حيوش باي المدية شعبان زناغي الذي فرض على المدينة ضريبة سنوية قدرت بسعمائة ريال، وكان ذلك حتى سنة 1784 حينما قدم الباي مصطفى باي التيطري لجمع تلك الضرائب إلا أنه الهرم تحت أسوار مدينة الأعواد. أما في سنة 1785 عمد باي وهران محمد الكبير على محاصرة مدينة الأغواط التي لم تستسلم إلا بعد معارك عنيفة، وطلب علماء المدينة الأمان من الناي، شرط دفع ضريبة حرب قدرت بمائة عبد وثلاثمائة وخمسين بغير وخمسة آلاف يوجو وأربعة أحصنة، بالإضافة إلى ذلك عين قائدين على المجموعتين البارزتين في الأغواط، فنصب أحمد بن الحضر قائدا على أولاد سرغين والسائح بن زعنون فائدى على أولاد الأحلاف .

و في سنة 1787 حلف الباي عثمان أباه محمد الكبير على وهران، وأراد أن ينتقم المريعة عين ماضي محاصر القصر وهدد السكان بقطع أرزاقهم، وحتى يتفادوا المتاعب والخسائر فضل سكان عين ماضي الخضوع وامتثلوا بدفع الضرائب بعد أن تمكن الشيخ أحمد التيجاني 10 من القرار واللجوء إلى بوسمعون، ومن ثم إلى إلى فاس بالمغرب الأقصى حيث توفي بها 1815 ثم عرج الباي عثمان على الأغواط لينتقم من الذين ناصروا الشيخ أحمد التيجاني خاصة أولاد الأخلاف الذين فروا من الأغواط المؤسسوا مع أولاد رحمان قصر الحيران، لكن ما لبث أن حصلت بينهما خصومات عديدة وعنيفة فقد على إثرها أولاد الأحلاف زعيمهم السائح بن زعنون وأخوه معمر بن زعنون، وبما أن

السائح بن زعنون لم ينجب أولادا و أخوه معمر ترك طفلين صغيرين، أكبرهما أحمد بن سالم، الذي استطاع أن يكسب ود الجميع، ويحكم الأغواط بمفرده بعد أن تزوج ابنة قائد أولاد سرغين أحمد بن الخضر[1] .

و بعد تولي أحمد بن سالم 1 السلطة في الأغواط سنة 1828 عرفت البلاد نوعا من الاستقرار والهدوء سمح بنمو وازدهار الحركة التجارية المتمثلة في التبادل بين أهل الشمال المحملين بالحبوب والمواد الغذائية وأهل الجنوب بمنتجاتهم الزراعية خاصة التمور.[2]

تعرف منطقة الأغواط بأنها بوابة للصحراء، ولا تخفى هذه الأهمية على أحد، ولا سيما على الجيش الفرنسي الذي كانت نيته منذ البداية بعد احتلال الجزائر السيطرة على جيرانها، ومنها الانطلاق نحو إفريقيا لفرنستها وتمسيحها. فقد كان هدف الفرنسيين من احتلال الجزائر سنة 1830م محاربة الإسلام وإحلاله بالمسيحية، وهذا ما أعلن عنه صراحة سكرتير الحاكم العام الفرنسي سنة 1832م، و مما قاله: "إن آخر أيام الإسلام قد دنت، وفي خلال عشرين عاما، لن يكون للجزائر إله غير المسيح، ونحن إذا أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا، فلا يمكننا أن نشك على أي حال بأنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد، أما العرب فلن يكونوا رعايا لفرنسا إذا أصبحوا مســيح جميعا 12. وما يؤكد سلسة الحملة الفرنسية على الجزائر، ما قاله الجنرال "دي بورمون" بعد سقوط مدينة الجزائر في قبضته مخاطبا القساوسة: "إنكم أعدتم معنا فتح الباب للمسيحية في إفريقيا، ولنأمل أن تينع قريبا الحضارة التي انطفأت في هذه الربوع رغم أن طبيعة الصحراء المقفرة و البيئة الطاردة الموحشة، إلا أن الاستعمار الفرنسي لم يهملها في استراتيجيته العسكرية، حيث كان يصبو منذ البداية إلى التوغل في أعماق البلاد، فلم تكد تمض أربعة عشر سنة على سقوط مدينة الجزائر حتى احتلت قوات الاستعمار بسكرة

[1] **E. Mangin**," Notes sur l'histoire de Laghouat ", Revue africaine Nº 37 (1893),p16- 20.
[2] **Louis Rinn**, Marabouts et Khouans etude sur l'islam en Algérie (Adolphe Jourdan, libraire-éditeur, Alger, 1884) p420.

سنة 1844ثم توسعت نحو المناطق الداخلية مثل الأغواط وتقرت والوادي.... فالأغواط كانت ولا زالت تمثل منطقة عبور بين المناطق التلية الشمالية والمناطق الصحراوية الجنوبية، ولذلك استماتت القوات الفرنسية ودفعت الكثير من جنودها للسيطرة على المنطقة[1].

2. التوسع الفرنسي بالأغواط.

الجنرال "دي بورمون" بعد سقوط مدينة الجزائر في قبضته مخاطبا القساوسة: "إنكم أعدتم معنا فتح الباب للمسيحية في إفريقيا، ولنأمل أن تينع قريبا الحضارة التي انطفأت في هذه الربوع رغم أن طبيعة الصحراء المقفرة والبيئة الطاردة الموحشة، إلا أن الاستعمار الفرنسي لم يهملها في استراتيجيته العسكرية، حيث كان يصبو منذ البداية إلى التوغل في أعماق البلاد، فلم تكد تمض أربعة عشر سنة على سقوط مدينة الجزائر حتى احتلت قوات الاستعمار بسكرة سنة 1844ثم توسعت نحو المناطق الداخلية مثل الأغواط وتقرت والوادي.... فالأغواط كانت ولا زالت تمثل منطقة عبور بين المناطق التلية الشمالية والمناطق الصحراوية الجنوبية، ولذلك استماتت القوات الفرنسية ودفعت الكثير من جنودها للسيطرة على المنطقة[2].

أدرك الجنرال أهمية هذه المسألة فأسرع إلى إبلاغ رؤسائه، فبادر بإرسال يحي بن معمر إلى الجزائر العاصمة محملا بتقرير إلى المارشال بوجو Bugeaud الوالي العام للجزائر، والذي كاتب بدوره مباشرة الماريشال سولت Soult وزير الحربية بباريس، ومما كتبه تذكر ما يلي: "فضلا عما تقدمه لنا من ثروات فان المناطق الأهلة في الصحراء هي ضرورية لسياستنا وتجارتنا، كما يجب أن تسود في كل مكان ساد فيه الأمير عبد القادر.... وسيطرتنا على هذه المناطق تفتح لنا أفاقا واسعة لازدهار تجارتنا وربطها

[1] **E.Mangin**,op.cit,pp355,361.

[2] يوسف مناصرية،مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب 1832-1847، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص ص24،25.

بإفريقيا الداخلية، وتعمل على حرمان عبد القادر من المصادر التي يمكن أن يجدها في هذه الأماكن[1].

وافقت الحكومة على اتخاذ كل الإجراءات اللازمة، وأعطيت الأوامر التحضير بعثة عسكرية استكشافية إلى الأغواط أو كلت قيادتها إلى الجنرال ماري موضح يوم 12 أبريل 1844م، وفي الفاتح من ماي غادرت البعثة المدية، التي كانت تتكون من ألف وسبعمائة جندي منهم مائة وأربعون من قناصة إفريقيا والصباحية، وأربع مائة فارس من القوم، ومائة من الأحصنة والبغال وألف وأربع مائة جمل. في 21 ماي وصلت هذه القوات إلى تاجموت أين استقبلها أحمد بن سالم محاطا بأعيان سكان الأعوام، وغاب عن هذا الاستقبال الشيخ التيجاني الذي أرسل ولاءه للجنرال، وأدركت السلطات الفرنسية قيمة هذا الشيخ المعنوية حيث كان له تأثير و نفوذ كبيرين على الأهالي، لذلك عاملته معاملة حسنة قصد إخضاعه نهائيا لسلطتها و يصبح صديقا للفرنسيين وتريد الهوة بينه وبين الأمير عبد القادر عدو الفرنسيين، فبعت الجنرال مونج وفدا بقيادة العقيد سانت أرنو Saint Arnaud للاطلاع على المكان وأخذ ما فرض من الضرائب، وكان الشيخ التيجاني قد تردد في استقبال هذا القائد المسيحي لكه في الأخير استقبله وسهل له مهامه، وحتى توطد فرنسا علاقتها بالشيخ التيجاني أرجعت له ما دفعه من الضرائب

وفي يوم 23 ماي تحرك الطابور ليحيم في الحويطة ومنها إلى الأغواط، ليقيم فيه يومين 26 و27 ماي، وفي 28 ذهب الطابور ليحيم بقصر الحيران، ويوم 29 بودرين، وكان يصطحبهم في هذه الرحلة أحمد بن سالم الذي عينه فرنسا خليفة على المنطقة، لأنه يمثل الضمان الكامل للنفوذ الفرنسي في الأغواط باعتباره شخصية مرموقة وعدو للأمير عبد القادر، وكانت تسانده قوة عسكرية تقدر بألف و مائتين جندي وخمسمائة فارس وقطعة مدفعية [2].

---

[1] –**إبراهيم مياسي**،من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص121.

[2] مرجع نفسه، ص 122.

ثانيا: احداث المقاومة.

نظرا لأهمية الأغواط فإن الفرنسيين قد حضروا لاحتلالها منذ 1844حين بعثوا إليها حاكم التيطري Marey Monge المعروف ب(Stanislas, conte de Peluze Guillaume) المولود سنة 1796 والمتوفي عام 1863. وكانت حملته في ماي – جوان من هذا العام، واستقبله أحمد بن سالم في جيش كبير، وظل خليفة على المدينة باسم الفرنسيين منذ ذلك التاريخ. وقد وثق الجنرال ماري أخبار هذه الحملة في كتاب الحملة على الأغواط الذي ضمنه خريطة ومعطيات رقمية خاصة بالمنطقة. أما بخصوص خليفتها المذكور فيراجع خبره في كتابنا لا ضمن مادة أحمد بن سالم.

وقد احتل الفرنسيون الأغواط في 02 ديسمبر1852. وارتكبوا بها مجزرة رهيبة للغاية في 04 ديسمبر جعلت أهل المدينة يخلونها بصفة جماعية حتى سمى ذلك العام بعام الخلية.

حشد الفرنسيون قوات كبيرة في السنة التالية ضد الثورة، قادها الجنرالات السفاحون: يوسف، وبليسي، وماكماهون ودعمها كثير من الخونة. وقام الغزاة بمهاجمة المجاهدين والقبائل الموالية لهم، وارتكاب المجتمع في منتهى الضراوة بحق السكان، خاصة في مدينة الأغواط التي انتهكوا بها الأعراض بلا حدود، وذبحوا الآدميين بالجملة لمدة ثمانية أيام حتى حفيت السيوف في ديسمبر 1852، وظلت الغربان والنسور تحوم فوق المدينة مدة شهر تتعقب الجيف[1].

ثالثا: مجزرة الأغواط.

بعد كل المحاولات التي قام بها الجنرال لادميرول من أجل إخضاع قبيلة الأرباع عن طريق التفاوض والعروض والتي باءت بالفشل كلها عملت الإدارة الاستعمارية على بث روح النزاع والفرقة بين القادة والزعماء من القبائل وشيوخ الزوايا مما أدى إلى زعزعة

[1] د.كمال بن صحراوي، معجم المقاومة الجزائرية مند بداية الإحتلال الفرنسي حتئ منتصف القرن 19 شخصيات– اماكن– احداث– معارك، الفا للوثائق، الجزائر، الطبعة الأولى، 2022، ص45، ص129.

المنطقة و نشوب اضطرابات في غاية الخطورة في الوقت الذي اشتعل فيه فتيل مقاومة الزعاطشة 1849، وهي كلها معطيات أقنعت فرنسا بضرورة شن حملة على الأغواط التي شهدت اندلاع انتفاضتها وظهور قيادات مقاومة بها، وكان الاستعمار الفرنسي حريص كل الحرص على احتلال هذه النقطة بالذات لأنها ذات موقع استراتيجي هام وأحد الأعمدة الأساسية للسياسة الاستعمارية ذات الأهداف بعيدة المدى لاحتلال الصحراء الكبرى و جزء كبير من إفريقيا جنوب الصحراء فالأغواط تشكل في نظر الفرنسيين[1]:

1. مركز متقدم الجنود الحراسة
2. بوابة للصحراء وقاعدة عسكرية يمكن التوسع منها إلى مناطق صحراوية أخرى.
3. نقطة استراتيجية متساوية البعد بين الجزائر والقليعة وورقلة وقريبة من البيض وأولاد سيدي الشيخ وتسمح بأخذ جبال العمور من الخلف وهي أقرب نقطة استراتيجية صحراوية إلى مدينة الجزائر.
4. مركز تموين الجيوش وإيوائها ومحطة للمياه.
5. نقطة مراقبة تجارة الميزاب نحو التل ونقطة ارتكاز وحماية القوافل مثل معاهدة 331853
6. قاعدة عسكرية وموقع جيد لكل التحركات.
7. الموقع العسكري للأغواط يسمح بملاحظة ومراقبة وتحديد تحركات السكان إلى إفريقيا جنوب الصحراء
8. تشكل الأغواط وبسكرة وبوسعادة والبيض حزاما للأمن لكل شمال الجزائر
9. من الأغواط وفي حالة أي عصيان مدني على بعد 400 كم فان القوات العسكرية يمكن أن تتدخل في كل الاتجاهات من عين الصفراء إلى تقرت إلى القليعة.
10. منتجات الأغواط الفلاحية وتجارتها تسمح لفرنسا أن تراقب كل حركات العرب الرحل وإرغام السكان على الاتصال بالنظام الاستعماري 34

[1] Koyne : Le Mzab. Revue africaine N23. 1879. P.200

كل هذه العوامل كانت تدركها السلطات الاستعمارية بشكل جيد، كما كان يدركها أيضا ابن ناصر بن شهرة لذلك فان الصراع كان على أشده للسيطرة على هذه المنطقة، وعليه فان الاستعمار لم يستطع أن يسيطر عليها إلا بعد أن جيش لها خيرة رجاله وبأعداد كبيرة، فقد أحاطت القوات الغازية المدينة من كل جوانبها وكانت موزعة كما يلي[1]:

من الشمال الجنرال يوسف (YUSUF)

من الشمال الغربي العقيد ترومل (Trumelet)

من الغرب الجنرال بيليسي (Pillisseir)

من الجنوب الغربي الجنرال بوسكارين (Bouskarin)

من الجنوب الشرقي العقيد بان (Pein)

من الشرق الرائد موران (Morand)

وهذا تفصيل لأهم القوات التي جهزتها سلطة الاحتلال الفرنسي من أجل احتلال مدينة الأغواط بالقوة[2].

1. فصل قوات الفرقة الأولى والثالثة والرابعة للمدفعية
2. فصل الفرقة الثالثة للهندسة
3. الخط الخمسون مع كتيبة تحت قيادة " العقيد جرارد."
4. الخط الستون مع كتيبتين تحت قيادة " العقيد ماركيز دو لينيار. "
5. الفرقة الأولى من الزوافين مع كتيبة تحت قيادة " الرائد باروا " . 4
6. الفرقة الثانية من الزوافين مع كتيبتين تحت قيادة كل من ملافوس " . العقيد كليرك" والرائد موران " و " الرائد
7. الكتيبة الأولى للمشاة الإفريقية الخفيفة تحت قيادة " الرائد ليبيرت."
8. كتيبة للرماة تحت قيادة "الرائد روز."

[1] L. Le Saint, E. Ardant : Fastes de L'Algérie Ancienne et Moderne, Limoge, 1873, P113.
[2] Pein.M.Th: Lettres Familiéres Sur L'Algérie, Ch, Tanera , Libraire ,Paris 1871, p371.

9. فصل من فيلق للرماة من إقليم قسنطينة.

10. أربع سريات للفرقة الثانية للصيادين إفريقيا تحت قيادة "العقيد رام."

11. سريتان للفرقة الأولى للصبايحية تحت قيادة" الرائد فرانك ".

12. سريتان للفرقة الثانية للصبايحية تحت قيادة "الرائد دولاتور لوندو " .

وقد حدثت عدة مواجهات بين تاريخ 21 نوفمبر وإلى غاية 02 ديسمبر تاريخ الهجوم المكثف والذي استعمل فيه الفرنسيون تلك الأعداد الضخمة من الجنود، ومن خيرة الضباط[1]:

03 جنرالات. 06 عقداء. 08 ضباط برتبة رائد. عشرات الضباط برتب مختلفة.

وجرت المعركة الفاصلة من 02 إلى 04 ديسمبر. 1852 بهجوم القوات الفرنسية على المدينة وقد تم ذلك أولا بقصف مدفعي عنيف، وقد استمات أهالي المدينة في الدفاع عنها رجالا ونساء، حيث جرت حرب شوارع عنيفة استعمل فيها الجيش الفرنسي كل الأسلحة حتى السلاح الأبيض.

وبهذا سقطت مدينة الأغواط بعد استماتة عظيمة ومقاومة عنيدة جدا من قبل المقاومين وعلى رأسهم. ابن ناصر ابن شهرة والشريف محمد بن عبد الله. حيث جرح هذا الأخير وأخرجه ابن ناصر ابن شهرة ليلا من الحصار المفروض على المدينة دون علم الجيش الفرنسي[2].

ارتكبت فرنسا أبشع الجرائم عند احتلالها للمدينة فها هو العقيد بان (PEIN) أحد المشاركين في الحملة يقول في كتابه رسائل عائلية (LETTRES).

المذبحة كانت بشعة، الشوارع كانت مغطاة بالجثث، وحسب أفضل الإحصائيات فإن عدد القتلى قد بلغ 2300 قتيل، ما بين الرجال والنساء والأطفال، أما عدد الجرحى فلا

[1] Journal des marches de la colonne expéditionnaire du sud, G. Pélissier (siège et prise de Laghouat) A.M.G décembre 1852 ; H 214. Voir aussi Randon : op. Cit. p. 114.

[2] يحي بوعزيز :وثائق جديدة حول محاربة الأمير عبد القادر للشيخ التجاني، المجلة التاريخية المغربية، العدد – 55 56، تونس، ديسمبر1989، س228.

نعلمه، فقد كان الجنود الفرنسيون مثل القطط ينتقلون من بيت إلى بيت ويطلقون النار دون أي تمييز من حيث السن والجنس 42 وينهبون ويسلبون الأثاث والنقود والحلي 43 ويحرقون المؤونة ولم تسلم حتى الكتب التي في الدور أو المساجد التي دمر اثنان منها وحول الثالث إلى إسطبل للحيوانات أما الرابع فقد حول إلى كنيسة أما من بقي حيا من السكان فقد أسروا، رجالا، نساء وأطفالا وضع لهم محتشد كبير عانوا فيه الجوع والمرض والمهانة كأنهم حيوانات، كما يذكر الملازم مونجا (MANGIN)في كتابه " ملاحظات حول تاريخ (NOTES SUR L'HISTOIRE DE) الأغواط (LAGHOUAT) أن عدد القتلى وصل إلى 2500 قتيل وبأن عدد الجرحى غير معلوم 45 ومنهم من استطاع الفرار إلى خارج الحصار، أما أكبر جريمة ارتكبتها القوات الفرنسية فهي جمعها لأعيان المدينة ووضعتهم في أكياس أغلقت عليهم ثم أحرقتهم قرب وادي أمزي ورمت ما يقارب 256 جنة في آبار المدينة هذه الجرائم المرتكبة يشهد بها الفرنسيون أنفسهم، فأحد الضباط المشاركين في الحملة يقول: "حمل جنودنا على البلدة من كل صوب لا يخامرهم أدنى تردد في الفتك بكل من يعترض سبيلهم أو يحاول و تم القضاء مقاومتهم مستخدمين كل ما لديهم بالسلاح الأبيض على من تبقى من المقاومين.. " ويقول مرة ثانية : "... المجزرة كانت رهيبة والأزقة مغطاة بالجثث ... كان الجنرال بيليسي (Pélissier) في أتم الابتهاج والفرح وعلى جماجم هؤلاء احتفل بالنصر حيث فرشت الزرابي الفاخرة وسط المدينة وتناول عليها غداءه وهنأ ضباطه على انجاز المهمة 46، ومما جاء في مذكرات " النقيب دوبراي 47 : (Du Barail) إن الجنرال بيليسي) (Pelissierاتخذ بعد المجزرة قرارا بهدم المدينة و اقتلاع نخيلها و ترحيل من بقي من السكان إلى منطقة أخرى في الجزائر 48، كما يصف الكاتب الفرنسي فرومنتان عند زيارته للأغواط بعد ستة أشهر من المعركة بأنه وجد المدينة ما زالت تفوح في جنباتها رائحة الجثث المتعفنة، وأن الكلاب تأتي ليلا لنهش أشلائها ويواصل قائلا : " جميع الأملاك المصادرة وضعت مؤقتا في عهدة حارس قضائي أما فيما يخص تلك الغنائم

العظيمة من السجاد والأسلحة والحلي ... فيمكن القول أنه لم يبقى منها شيء في الأغواط ... كل البيوت فارغة، من أفقرها إلى أغناها و تخالها مدينة رحل كل ساكنيها وقد سمي هذا اليوم في الذاكرة الشعبية (بعام الخلية) تعبيرا على أن المدينة فعلا خلت من كل ساكنيها.

هكذا سقطت هذه المدينة التي قدمت ثلثي 3/2 سكانها دفاعا عنها وبسقوطها فقد سقطت جزائر أخرى في الجنوب على حد قول الملازم مونجا[1].

رابعا: نتائج الجرائم الإستعمارية.

كانت نتائج الطرفين كالتالي[2]:

بالنسبة للطرف الفرنسي:

ذكرت الكتابات التاريخية الفرنسية أن حرب الأغواط رجلا بين قتيل وجريح، وعلى رأسهم الجنرال بوسكارن الذي 186 كلفت الجيش: الفرنسي سبق ذكره، ونقيب الزواف مراد.

بالنسبة للطرف الجزائري:

في هذا الصدد نجد الروايات تختلف حول طريقة معاملة الجيش الفرنسي للأغواطيين الذين احتضنوا الثورة، فبعضهم يتحاشى الحديث عن موضوع مأساة الأغواطيين، والبعض الآخر يتناول آخر يتناول المأساة بشكل عام ويبرئ أعمال القتل التي ارتكبها الجيش الفرنسي بحق الأغواطيين وصنف ثالث يفضح جرائم فرنسا الجماعية وينقل شهادات لشهود عيان ويقدم بعد بعض التفاصيل، فمثلا بالنسبة للصنف الأول، نجد المؤرخ العسكري بيار من يمثله حيث تكلم عن حرب الأغواط ولم يفرد للجريمة سوى جملة واحد واحدة وهي أن الجيش الفرنسي قتل قسما من الأغواطيين وقسم آخر لفي هوPierre

[1] Saint Arnaud : Lettres du Maréchal de Saint Arnaud, 1832 – 1854, T1, 2éd, Paris1858,p 517.

[2] بن عتو بلبروات، الاحتلال الفرنسي للاغواط و ضواحيها سنة 1853 وجرائمها، مجلة العصور الجديدة، العدد06، جامعة الجيلالي اليابس، الجزائر، 2012، ص46-48.

Montagnon مونتانان معاملة حيوانية وبالتالي هو يلمح إلى المأساة الأغواطية الأغواطية . لكنه لا يقدم تفاصيل.

أما الصنف الثاني ويمثله ليون جاليبار Léon Galibert فقد التف حول الجريمة وذكر أن الأغواط خسرت أكثر من 700 رجل، وأن الذين قتلوا هم الذين حملوا السلاح ضد الجيش الفرنسي، وأن النساء والأطفال تم الإشفاق عليهم، وقدم على الجنرال بليسيي أكثر من 600 رجل طالبين عفوه، ولم يبين الكاتب المذكور، مصيرهم، هل كان الأسر أم العفو أم القتل؟ ثم قال أن عددا قليلا من الثائرين نجح في الهروب من الواحة واختراق صفوف الفرسان ومن بينهم محمد بن عبد الله شريف ورقلة وقائد الثورة الذي فر إلى الصحراء متأثرا بجراحه.

وأخيرا يقدم الصنف الثالث الممثل في المؤرخ شارل أندري جوليان بعض الموضوعية ويصف الجريمة التي اقترفها الجيش الأغواطي بترخيص من قيادته (الحاكم العام راندون والجنرال بليسبي، والجنرال يوسف) ويذكر أن الفرق العسكرية الفرنسية قتلت كل الثائرين الذين لم يتمكنوا من الفرار والالتحاق بشريف ورقلة محمد بن عبد الله، ويستطرد قائلا أن هؤلاء يبررون أعمال التقتيل بأنها ضرورة فرضتها حرب الطرقات أو الشوارع داخل مدينة الأغواط، لكن أحد العناصر الفرنسية الحاضرة بعين المكان وقتذاك، كتب رسالة لبربروجرBerbrugger يذكر له فيها أن المدينة تم احتلالها بسهولة، وأن الخسائر الفرنسية من قتلى وجرحى كانت شبه منعدمة مقارنة بخسائر الثائرين ولمدة ثلاثة أيام انشغل العساكر بحرق الجثث أو جرها إلى الآبار وحتى الحيوانات لم تسلم من آلة القتل الفرنسية حيث تم خلط جثث الثوار بجثث الجمال والخيول والحمير ورميت مجتمعة في الحواسي. وبعد شهر واحد بدأت النسور والغربان تحوم فوق ركام الجثث. وأضاف مستشار الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث أنه في الأيام الثمانية الأولى من احتلال الأغواط كان الجيش الفرنسي يقوم بتنفيذ حكم الإعدام بدون محاكمة بحق 12 إلى 15 شخص في اليوم من الثوار المستسلمين، وأن سيوف فرق الصبايحية فعلت فعلتها ويقصد

هنا أنها حفيت .وبعد ستة أشهر من هذه المجزرة غير البطولية حسب تعبير جوليان الفرنسي، ورد من أحد الضباط بالأغواط أن العساكر الفرنسيين قتلوا فتاتين من أجل سرقة مجوهراتهما، وهذا ينافي ما ذكر أن الجيش الفرنسي قد التزم باحترام النساء. وذكر الضابط الشاهد على الجريمة أن طيور الحمام هجرت المدينة، ثم اختتم شهادته بأن سكان الأغواط مسالمين وليسوا من الأقوام المتعصبة للعنف (26)، وكأن الشاهد يتساءل ضمنيا لماذا أجرم الفرنسيون بحق المسالمين؟

ملخص الفصل

كانت الأغواط مدينة ذات أهمية استراتيجية كبيرة لأنها تمثل بوابة الصحراء ومركزاً للتجارة والاتصال بين شمال الجزائر وجنوبها، لذلك سعت فرنسا إلى احتلالها بعد سنة 1830 .وقد قاوم سكانها الاحتلال بشجاعة بقيادة عدد من المجاهدين، لكن القوات الفرنسية حاصرتها واحتلتها في ديسمبر 1852 بعد معارك عنيفة .وعقب الاحتلال ارتكبت فرنسا مجزرة كبيرة راح ضحيتها آلاف السكان، ودمرت المدينة ونهبت .ممتلكاتها، مما جعل مجزرة الأغواط من أبشع الجرائم الاستعمارية في تاريخ الجزائر

الفصل الرابع

الفصل الرابع: الأبعاد التاريخية والوطنية لجرائم الاستعمار الفرنسي

تمهيد:

شهدت الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي سلسلة من الجرائم والممارسات الاستعمارية التي استهدفت الإنسان والأرض والهوية الوطنية، خاصة في المناطق الداخلية والجنوبية التي عرفت مقاومات شعبية قوية ضد التوسع الاستعماري. وقد اعتمدت فرنسا في سبيل تثبيت وجودها على سياسة القمع والتدمير والمجازر الجماعية، الأمر الذي خلف آثاراً عميقة على المجتمع الجزائري بمختلف جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. غير أن هذه الجرائم لم تُضعف إرادة الجزائريين، بل ساهمت في تنمية الوعي الوطني وترسيخ روح المقاومة والدفاع عن الوطن.

وتبرز مقاومتا الزعاطشة والأغواط كنموذجين بارزين للمقاومات الشعبية التي واجهت الاحتلال الفرنسي بكل شجاعة، حيث عكستا تمسك الشعب الجزائري بهويته الوطنية والدينية، كما كشفتا عن الطبيعة القمعية للسياسة الاستعمارية الفرنسية في الجنوب الجزائري. وقد ساهمت هذه المقاومات، رغم ما تعرضت له من قمع ومجازر، في ترسيخ قيم التضحية والصمود داخل الذاكرة الوطنية الجزائرية.

ومن هذا المنطلق، يتناول هذا الفصل الأبعاد التاريخية والوطنية لجرائم الاستعمار الفرنسي، من خلال دراسة أهداف السياسة الاستعمارية في الجنوب الجزائري، وانعكاسات الجرائم الاستعمارية على المجتمع الجزائري، إضافة إلى إبراز دور المقاومات الشعبية في تنمية الوعي الوطني، مع التطرق إلى مكانة مقاومتي الزعاطشة والأغواط في التاريخ الجزائري باعتبارهما من أبرز محطات الكفاح الوطني ضد الاحتلال الفرنسي.

أولا: أهداف السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجنوب الجزائري

سعت فرنسا منذ احتلالها للجزائر سنة 1830 إلى توسيع نفوذها نحو المناطق الجنوبية، ولم يكن اهتمامها مقتصراً على المدن الساحلية فقط، بل تعداه إلى الصحراء الجزائرية التي كانت تمثل أهمية استراتيجية واقتصادية وعسكرية كبيرة. وقد عملت الإدارة الاستعمارية الفرنسية على تحقيق مجموعة من الأهداف من خلال احتلال الجنوب الجزائري وإخضاع سكانه بالقوة.

ومن أبرز أهداف السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجنوب الجزائري القضاء على المقاومات الشعبية التي انتشرت في مختلف المناطق الصحراوية، إذ رأت فرنسا في هذه المقاومات خطراً يهدد استقرار وجودها الاستعماري. فقد شهد الجنوب الجزائري عدة مقاومات قوية مثل مقاومة الزعاطشة سنة 1849 ومقاومة الأغواط سنة 1852، الأمر الذي دفع السلطات الفرنسية إلى تنظيم حملات عسكرية ضخمة للقضاء عليها وإرهاب السكان المحليين[1].

كما هدفت فرنسا إلى فرض السيطرة العسكرية على المناطق الصحراوية من خلال إنشاء المراكز والثكنات العسكرية، حيث اعتبرت الصحراء منطقة استراتيجية مهمة تساعدها على تأمين نفوذها في الجزائر وربط الشمال بالجنوب. لذلك ركزت على احتلال الواحات والمدن الصحراوية المهمة مثل الأغواط وبسكرة وتقرت وغيره[2].

ومن بين الأهداف الأساسية كذلك السيطرة على الطرق التجارية الصحراوية، إذ كانت القوافل التجارية تمر عبر الجنوب الجزائري نحو إفريقيا جنوب الصحراء، وهو ما جعل فرنسا تسعى للتحكم في هذه الطرق من أجل ضمان مصالحها الاقتصادية والتجارية.

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص145.

[2] أحمد توفيق المدني، تاريخ الجزائر العام، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص87.

كما كانت تطمح إلى استغلال الثروات الطبيعية والزراعية الموجودة في المناطق الصحراوية[1].

واعتمدت فرنسا في سبيل تحقيق أهدافها على سياسة القمع والتخويف، حيث استخدمت القوة العسكرية المفرطة ضد السكان، وقامت بارتكاب المجازر الجماعية وتدمير الواحات والمنازل وحرق المحاصيل الزراعية. وقد هدفت هذه السياسة إلى بث الرعب في نفوس الجزائريين ومنعهم من التفكير في المقاومة أو مساعدة الثوار[2].

إضافة إلى ذلك، سعت فرنسا إلى تثبيت وجودها الاستعماري بشكل دائم في الجنوب الجزائري، وذلك من خلال فرض الإدارة الفرنسية وإخضاع القبائل المحلية لسلطتها. كما حاولت إضعاف الروابط الاجتماعية والدينية بين السكان عبر محاربة الزوايا والقيادات الدينية التي كانت تدعم المقاومة الشعبية[3].

وقد أدت هذه السياسة الاستعمارية إلى وقوع خسائر بشرية ومادية كبيرة في الجنوب الجزائري، غير أن السكان واصلوا مقاومتهم وتمسكهم بهويتهم الوطنية والدينية، وهو ما ساهم لاحقًا في تنمية الوعي الوطني واستمرار النضال ضد الاستعمار الفرنسي.

ثانيا: انعكاسات الجرائم الاستعمارية على المجتمع الجزائري.

خلّفت الجرائم الاستعمارية الفرنسية في الجزائر آثاراً عميقة على مختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية، خاصة خلال القرن التاسع عشر، حيث اعتمدت فرنسا سياسة قمعية عنيفة من أجل إخضاع الشعب الجزائري والقضاء على المقاومات الشعبية. وقد تجلت هذه الجرائم في المجازر الجماعية، والتدمير، والتهجير، والحصار، وسياسة الأرض المحروقة، الأمر الذي أدى إلى معاناة كبيرة داخل المجتمع الجزائري.

---

[1] محمد الميلي، الجزائر في التاريخ، ج4، دار الهدى، الجزائر، 2007، ص201.

[2] يحيى بوعزيز، ثورة الزعاطشة 1849، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص112.

[3] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص152.

ومن أبرز الانعكاسات التي خلفتها الجرائم الاستعمارية الانعكاسات البشرية، إذ تسببت الحملات العسكرية الفرنسية في سقوط أعداد كبيرة من الشهداء والجرحى، خاصة خلال مقاومات الزعاطشة والأغواط وغيرها من المقاومات الشعبية. فقد اعتمد الجيش الفرنسي على القتل الجماعي دون التمييز بين الرجال والنساء والأطفال والشيوخ، مما أدى إلى تناقص عدد السكان في العديد من المناطق الجزائرية[1].

كما أدت المجازر إلى تشتيت العائلات وفقدان الكثير من الأطفال لآبائهم، وهو ما زاد من حجم المعاناة الاجتماعية.

كما أثرت الجرائم الاستعمارية بشكل كبير على الوضع الاقتصادي للجزائريين، حيث قامت فرنسا بتدمير الواحات والمزارع وحرق المحاصيل الزراعية ونهب الممتلكات. وقد انعكست سياسة الأرض المحروقة سلباً على النشاط الفلاحي الذي كان يمثل المورد الأساسي للسكان، مما أدى إلى انتشار الفقر والمجاعة في عدة مناطق[2]. إضافة إلى ذلك، فرضت الإدارة الاستعمارية ضرائب ثقيلة على الأهالي وصادرت مساحات واسعة من الأراضي الزراعية لصالح المعمرين الأوروبيين، وهو ما ساهم في تدهور الظروف المعيشية للجزائريين.

ومن بين الانعكاسات الخطيرة أيضاً الانعكاسات الاجتماعية، حيث أدت الجرائم الاستعمارية إلى تفكك البنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري. فقد تعرضت القبائل والعائلات إلى النزوح والهجرة بسبب الحروب والحصار، كما ساهمت عمليات القتل والتشريد في انتشار حالة من عدم الاستقرار داخل المجتمع[3]. وأصبحت الكثير من المناطق تعاني من الفقر والبطالة نتيجة فقدان السكان لممتلكاتهم ومصادر رزقهم.

---

[1] يحيى بوعزيز، ثورة الزعاطشة 1849، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص112.

[2] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص152.

[3] محمد الميلي، الجزائر في التاريخ، ج4، دار الهدى، الجزائر، 2007، ص209.

أما من الناحية النفسية، فقد تركت الجرائم الاستعمارية آثاراً مؤلمة في نفوس الجزائريين بسبب مشاهد القتل والدمار التي رافقت الحملات الفرنسية. فقد عاش السكان حالة من الخوف والقلق نتيجة المجازر الوحشية التي ارتكبها الاحتلال، خاصة بعد لجوء الجيش الفرنسي إلى أساليب وحشية مثل قطع الرؤوس والتمثيل بالجثث[1]. ورغم ذلك، ساهمت هذه المعاناة في زيادة كراهية الشعب الجزائري للاستعمار وترسيخ روح المقاومة والصمود.

كما كان للجرائم الاستعمارية انعكاسات ثقافية ودينية، حيث حاولت فرنسا طمس الهوية الوطنية الجزائرية من خلال محاربة اللغة العربية والتضييق على التعليم الديني والزوايا. وقد استهدفت السلطات الاستعمارية المؤسسات الدينية لأنها كانت تلعب دوراً مهماً في نشر الوعي الوطني ودعم المقاومات الشعبية[2]. غير أن الجزائريين تمسكوا بدينهم ولغتهم وعاداتهم رغم مختلف محاولات الاستعمار.

إضافة إلى ذلك، ساهمت الجرائم الاستعمارية في تنمية الوعي الوطني لدى الجزائريين، إذ أدرك الشعب الجزائري أن الاستعمار الفرنسي لا يهدف فقط إلى احتلال الأرض، بل يسعى أيضاً إلى القضاء على الشخصية الجزائرية. لذلك استمرت روح المقاومة بين الأجيال، وتحولت المقاومات الشعبية إلى مصدر إلهام للحركة الوطنية الجزائرية فيما بعد[3].

وقد ساعدت المعاناة التي عاشها الجزائريون تحت الاحتلال الفرنسي على توحيد صفوفهم وتقوية شعورهم بالانتماء الوطني، حيث أصبح الدفاع عن الوطن والهوية واجباً جماعياً. كما لعبت الذاكرة الشعبية دوراً مهماً في تخليد بطولات المقاومين والشهداء، وهو

[1] أحمد توفيق المدني، تاريخ الجزائر العام، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص94.

[2] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص160.

[3] محمد الميلي، الجزائر في التاريخ، ج4، دار الهدى، الجزائر، 2007، ص215.

ما ساهم في استمرار النضال ضد الاستعمار إلى غاية اندلاع الثورة التحريرية سنة 1954.

وفي الأخير، يمكن القول إن الجرائم الاستعمارية الفرنسية خلفت آثاراً خطيرة على المجتمع الجزائري، غير أنها فشلت في القضاء على إرادة الشعب الجزائري الذي واصل مقاومته وتمسكه بهويته الوطنية والدينية رغم كل أشكال القمع والتنكيل.

ثالثا: أثر المقاومات الشعبية في تنمية الوعي الوطني.

شكّلت المقاومات الشعبية الجزائرية منذ بداية الاحتلال الفرنسي سنة 1830 صورة حقيقية لرفض الشعب الجزائري للوجود الاستعماري، حيث عبّر الجزائريون من خلال هذه المقاومات عن تمسكهم بأرضهم ودينهم وهويتهم الوطنية. ولم تقتصر أهمية هذه المقاومات على الجانب العسكري فقط، بل امتد تأثيرها إلى الجانب الفكري والوطني، إذ ساهمت بشكل كبير في تنمية الوعي الوطني لدى الشعب الجزائري وترسيخ روح الانتماء للوطن.

لقد أدرك الجزائريون منذ السنوات الأولى للاحتلال أن فرنسا لا تهدف فقط إلى السيطرة العسكرية، بل تسعى أيضاً إلى القضاء على الشخصية الجزائرية ومقومات المجتمع الجزائري. لذلك ظهرت المقاومات الشعبية في مختلف مناطق البلاد بقيادة شخصيات وطنية ودينية مثل الأمير عبد القادر، والشيخ بوزيان، وبوبغلة، وفاطمة نسومر وغيرهم[1]. وقد ساعدت هذه المقاومات على نشر فكرة الدفاع عن الوطن باعتباره واجباً دينياً ووطنياً.

ومن أبرز مظاهر تأثير المقاومات الشعبية في تنمية الوعي الوطني ترسيخ روح الجهاد والمقاومة لدى الجزائريين، حيث لعبت الزوايا والعلماء دوراً مهماً في تشجيع السكان على مقاومة الاحتلال الفرنسي. فقد ارتبطت المقاومة بالدفاع عن الدين الإسلامي وحماية الأرض والعِرض، مما جعل الشعب الجزائري يلتف حول قادة المقاومة ويعتبرهم

[1] ا حمد توفيق المدني، تاريخ الجزائر العام، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة الثانية، 1984، ص88.

رموزاً وطنية[1]. وقد ساعد هذا الارتباط بين الدين والوطنية على تقوية روح التضامن بين الجزائريين.

كما ساهمت المقاومات الشعبية في الحفاظ على الهوية الوطنية الجزائرية، خاصة في ظل السياسة الاستعمارية التي حاولت طمس اللغة العربية ومحاربة التعليم الديني والثقافة الجزائرية. فقد أدرك الجزائريون أن الحفاظ على مقومات الشخصية الوطنية يمثل جزءاً من مقاومة الاحتلال، لذلك حافظوا على عاداتهم وتقاليدهم وتمسكوا بدينهم ولغتهم رغم الضغوط الاستعمارية[2].

ومن جهة أخرى، لعبت المقاومات الشعبية دوراً كبيراً في توحيد الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي، إذ شاركت مختلف القبائل والفئات الاجتماعية في الكفاح ضد الاحتلال، مما ساهم في تقوية الشعور بالوحدة الوطنية. ورغم الاختلافات القبلية والجهوية، فإن الجزائريين اجتمعوا حول هدف واحد يتمثل في الدفاع عن الوطن وطرد المستعمر[3].

وقد ساعدت الجرائم الاستعمارية المرتكبة ضد السكان على زيادة الوعي الوطني لدى الجزائريين، حيث أدرك الشعب الجزائري حقيقة السياسة الفرنسية القائمة على القمع والتدمير. فقد خلفت مجازر الزعاطشة والأغواط وغيرها من المجازر حالة من الغضب الشعبي، وهو ما دفع الجزائريين إلى التمسك أكثر بفكرة المقاومة ورفض الاحتلال[4].

كما ساهمت المقاومات الشعبية في انتقال روح النضال بين الأجيال، حيث بقيت بطولات المقاومين تُروى في الذاكرة الشعبية وتتناقلها العائلات الجزائرية جيلاً بعد جيل.

---

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1998، ص145.

[2] محمد الميلي، الجزائر في التاريخ، ج4، دار الهدى، الجزائر، الطبعة الأولى، 2007، ص201.

[3] يحيى بوعزيز، الثورات الشعبية في الجزائر، دار البصائر، الجزائر، الطبعة الأولى، 2009، ص97.

[4] يحيى بوعزيز، ثورة الزعاطشة 1849، دار البصائر، الجزائر، الطبعة الأولى، 2009، ص112.

وقد لعب هذا العامل دوراً مهماً في استمرار فكرة المقاومة داخل المجتمع الجزائري، وتحول المقاومون إلى رموز وطنية خالدة في التاريخ الجزائري[1].

إضافة إلى ذلك، مهدت المقاومات الشعبية الطريق لظهور الحركة الوطنية الجزائرية في بداية القرن العشرين، إذ ساهمت في نشر الوعي السياسي والوطني بين الجزائريين. فقد استلهم قادة الحركة الوطنية أفكارهم من تضحيات المقاومين الأوائل، واعتبروا أن الكفاح ضد الاستعمار امتداد للمقاومات الشعبية السابقة[2].

وقد ظهر تأثير هذه المقاومات أيضاً في تمسك الجزائريين بحقهم في الحرية والاستقلال، حيث أصبحت فكرة التحرر الوطني هدفاً مشتركاً بين مختلف فئات المجتمع. كما ساعدت المقاومات الشعبية على غرس قيم التضحية والصمود في نفوس الجزائريين، وهي القيم التي ظهرت بوضوح خلال الثورة التحريرية الجزائرية سنة 1954[3].

ومن الناحية الثقافية، ساهمت المقاومات الشعبية في الحفاظ على الذاكرة الوطنية الجزائرية، حيث اهتم المؤرخون والباحثون بتوثيق بطولات المقاومين وتخليد تضحياتهم. كما ساعد الأدب الشعبي والأشعار والأغاني الوطنية في نقل أحداث المقاومات إلى الأجيال اللاحقة، مما عزز الشعور بالانتماء الوطني[4].

ورغم القمع الشديد الذي مارسته فرنسا ضد المقاومات الشعبية، فإنها لم تستطع القضاء على إرادة الشعب الجزائري، بل ساهمت هذه الجرائم في زيادة تمسك الجزائريين بحقهم في الحرية والاستقلال. وقد بقيت المقاومات الشعبية مصدر فخر واعتزاز للشعب الجزائري، باعتبارها مرحلة مهمة من مراحل الكفاح الوطني ضد الاستعمار الفرنسي[5].

---

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1998، ص160.

[2] أحمد توفيق المدني، تاريخ الجزائر العام، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة الثانية، 1984، ص101.

[3] محمد الميلي، الجزائر في التاريخ، ج4، دار الهدى، الجزائر، الطبعة الأولى، 2007، ص215.

[4] أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 2007، ص55.

[5] يحيى بوعزيز، الثورات الشعبية في الجزائر، دار البصائر، الجزائر، الطبعة الأولى، 2009، ص121.

وفي الأخير، يمكن القول إن المقاومات الشعبية لعبت دوراً أساسياً في تنمية الوعي الوطني لدى الجزائريين، إذ ساهمت في ترسيخ روح المقاومة، والحفاظ على الهوية الوطنية، وتوحيد الشعب الجزائري ضد الاستعمار. كما مهدت هذه المقاومات الطريق لظهور الحركة الوطنية والثورة التحريرية التي انتهت باستقلال الجزائر سنة 1962.

رابعا: مكانة مقاومتي الزعاطشة والأغواط في التاريخ الجزائري.

تعدّ مقاومتا الزعاطشة (1849) والأغواط (1852) من أبرز المحطات التاريخية في مسار الكفاح الشعبي الجزائري خلال القرن التاسع عشر، حيث تجسدان بوضوح طبيعة الرفض الشعبي للاحتلال الفرنسي، وتعكسان مدى تمسك الجزائريين بأرضهم وهويتهم الدينية والوطنية. وقد ظهرت هاتان المقاومتان في سياق التوسع الاستعماري الفرنسي الذي لم يقتصر على المدن الساحلية، بل امتد إلى المناطق الداخلية والجنوبية، في محاولة لإحكام السيطرة على كامل التراب الجزائري، وهو ما قوبل بمقاومة شرسة من السكان المحليين[1].

ففي منطقة الزعاطشة، برزت مقاومة قوية بقيادة الشيخ بوزيان، الذي تمكن من تعبئة السكان وتنظيمهم في مواجهة القوات الفرنسية. وقد تميزت هذه المقاومة بطابعها الشعبي والديني، حيث شارك فيها مختلف أفراد المجتمع، وارتبطت بالدفاع عن الدين والأرض، وهو ما منحها قوة معنوية كبيرة. وقد فرضت القوات الفرنسية حصاراً شديداً على الواحة، استمر لعدة أشهر، حاولت خلاله كسر إرادة السكان، غير أن هؤلاء أبدوا صموداً كبيراً رغم نقص الإمكانيات[2].

وقد بلغت هذه المقاومة ذروتها عند اقتحام الزعاطشة في 26 نوفمبر 1849، حيث ارتكبت القوات الفرنسية مجازر مروعة في حق السكان، تمثلت في القتل الجماعي

[1] أحمد توفيق المدني، تاريخ الجزائر العام، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1984، ص85.

[2] يحيى بوعزيز، ثورة الزعاطشة 1849، دار البصائر، الجزائر، ط1، 2009، ص97.

والتنكيل بالجثث وقطع رؤوس قادة المقاومة. وقد شكلت هذه الأحداث صدمة كبيرة، لكنها في الوقت نفسه ساهمت في ترسيخ صورة الزعاطشة كرمز للتضحية والصمود في الذاكرة الوطنية الجزائرية[1]

أما مقاومة الأغواط، فقد جاءت في إطار استمرار التوسع الفرنسي نحو الجنوب، حيث كانت المدينة تمثل موقعًا استراتيجيًا مهمًا. وقد رفض سكانها الخضوع للاحتلال، فقاموا بتنظيم أنفسهم لمواجهة القوات الفرنسية التي حاصرت المدينة وقصفتها بالمدفعية الثقيلة. ورغم التفوق العسكري الفرنسي، فقد أظهر السكان مقاومة بطولية تعكس درجة الوعي الوطني المتنامي لديهم[2].

وفي 4 ديسمبر 1852، سقطت مدينة الأغواط بعد حصار عنيف، لتشهد بعدها مجازر رهيبة، حيث قُتل عدد كبير من السكان ودُمرت الممتلكات بشكل واسع. وقد سُمّيت هذه السنة في الذاكرة الشعبية بـــ"عام الخلية"، في دلالة على كثرة الضحايا. وقد ساهمت هذه الأحداث في تعميق الشعور الوطني وزيادة الوعي بخطورة الاستعمار[3].

إن مكانة مقاومتي الزعاطشة والأغواط لا تكمن فقط في كونهما حدثين تاريخيين، بل في كونهما ساهمتا في تشكيل الوعي الوطني الجزائري. فقد أدرك الجزائريون من خلال هذه التجارب أن الاستعمار لا يستهدف الأرض فقط، بل الهوية أيضًا، وهو ما دفعهم إلى التمسك بدينهم وثقافتهم[4].

كما ساهمت هاتان المقاومتان في تعزيز روح التضامن بين الجزائريين، حيث شاركت فيهما مختلف القبائل والفئات الاجتماعية، مما يعكس وحدة الشعب في مواجهة الاستعمار. وقد أدى هذا التضامن إلى تقوية الروابط الوطنية بين الجزائريين[5].

---

[1] نفس المرجع، ص112.

[2] محمد الميلي، الجزائر في التاريخ، ج4، دار الهدى، الجزائر، ط1، 2007، ص198.

[3] مجموعة مؤلفين، الأغواط عاصمة المقاومة والصمود، دار الهدى، الجزائر، ط1، 2010، ص66.

[4] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998، ص150.

[5] نفس المرجع، ص160.

ومن جهة أخرى، فإن الجرائم التي ارتكبها الاستعمار خلال هاتين المقاومتين ساهمت في تنمية الوعي السياسي لدى الجزائريين، حيث أصبحوا أكثر إدراكًا لطبيعة المشروع الاستعماري. وقد أدى ذلك إلى استمرار روح المقاومة وانتقالها من جيل إلى آخر[1].

كما احتلت مقاومتا الزعاطشة والأغواط مكانة بارزة في الذاكرة الشعبية، حيث تم تخليد بطولات الشهداء من خلال الروايات والأشعار، وهو ما ساهم في الحفاظ على الهوية الوطنية[2].

وقد اهتم المؤرخون بدراسة هاتين المقاومتين، واعتبروهما من أهم مراحل المقاومة الشعبية في الجزائر، نظراً لما تحملانه من دلالات وطنية عميقة. كما اعتُبرتا مصدر إلهام للحركة الوطنية الجزائرية لاحقًا[3].

وتُظهر هذه المقاومات أن الشعب الجزائري، رغم ضعف إمكانياته، كان قادراً على مواجهة قوة استعمارية كبرى، وهو ما يعكس قوة إرادته. كما ساهمت هذه التجارب في ترسيخ فكرة الكفاح من أجل الاستقلال، والتي ستتجسد لاحقًا في الثورة التحريرية.

وبالتالي، فإن مقاومتي الزعاطشة والأغواط تمثلان مرحلة أساسية في تاريخ الجزائر، حيث ساهمتا في بناء الوعي الوطني، وترسيخ قيم التضحية والصمود، وتبقيان رمزاً خالداً في الذاكرة الوطنية.

---

[1] أحمد توفيق المدني، مرجع سابق ذكره، ص101.

[2] أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق ذكره، ص170.

[3] حمد الميلي، مرجع سابق ذكره، ص210.

ملخص الفصل

هدفت السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجنوب الجزائري إلى القضاء على المقاومات الشعبية، والسيطرة على الصحراء وطرق التجارة، وترسيخ الوجود الاستعماري بالقوة وقد خلفت الجرائم الاستعمارية آثاراً خطيرة تمثلت في القتل والتشريد والفقر وتدمير الممتلكات، لكنها ساهمت في زيادة الوعي الوطني وتمسك الجزائريين بهويتهم، كما لعبت المقاومات الشعبية دوراً مهماً في نشر روح المقاومة والوحدة الوطنية والحفاظ على الدين والثقافة الجزائرية، ومهدت لظهور الحركة الوطنية والثورة التحريرية .وتُعد مقاومتا الزعاطشة والأغواط من أبرز رموز الكفاح الجزائري، لما جسدته من تضحيات وصمود في مواجهة الاحتلال الفرنسي وأسهمت في ترسيخ الوعي الوطني.

الخاتمة

الخاتمة:

بعد العرض والتحليل لموضوع مقاومتي الزعاطشة (1849) والأغواط (1852)، توصّلنا إلى جملة من النتائج التي يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

- شكّلت مقاومتا الزعاطشة والأغواط نموذجًا حيًا للمقاومة الشعبية في الجنوب الجزائري، حيث عبّرتا عن تمسّك السكان بأرضهم ورفضهم القاطع للوجود الاستعماري الفرنسي.
- ساهمت السياسة الاستعمارية القائمة على التوسع ونهب الأراضي وفرض الضرائب في إشعال فتيل هاتين المقاومتين، إضافة إلى المساس بالمقومات الدينية والاجتماعية للسكان.
- برز دور القيادات المحلية في تأطير وتنظيم المقاومة، وعلى رأسهم الشيخ بوزيان في الزعاطشة، حيث نجحوا في توحيد صفوف السكان وتحفيزهم على الجهاد رغم ضعف الإمكانيات.
- أظهرت المقاومتان قدرة كبيرة على الصمود والمواجهة، حيث واجه المقاومون الجيش الفرنسي بأساليب تقليدية لكن بروح قتالية عالية وإرادة قوية.
- كشفت أحداث الزعاطشة والأغواط عن الوجه الحقيقي للاستعمار الفرنسي، الذي اعتمد على القمع الوحشي والإبادة الجماعية لتثبيت سيطرته.
- عرفت مقاومة الزعاطشة حصاراً شديداً انتهى بتدمير الواحة وقتل عدد كبير من سكانها، في حين شهدت مقاومة الأغواط مجازر دموية رهيبة باستعمال أساليب قمعية عنيفة.
- أدّت هذه الأحداث إلى خسائر بشرية ومادية جسيمة، تمثّلت في استشهاد الآلاف، وتدمير القرى والواحات، وتهجير السكان.
- انتهج الاستعمار بعد القضاء على المقاومتين سياسة انتقامية تمثّلت في مصادرة الأراضي وتفكيك البنية الاجتماعية للسكان.

- رغم فشل المقاومتين عسكرياً، إلا أنهما حققتا نجاحاً معنوياً كبيراً، إذ ساهمتا في ترسيخ روح المقاومة والوعي الوطني لدى الجزائريين.
- بيّنت هذه المقاومات أن الكفاح الشعبي لم يكن عفوياً فقط، بل كان منظّماً ويعكس رفضاً جماعياً للهيمنة الأجنبية.
- كما ساهمت في الحفاظ على الهوية الوطنية والدينية في وجه محاولات الطمس والتغريب التي انتهجها الاستعمار.
- أظهرت وحدة الشعب الجزائري وتضامنه رغم البعد الجغرافي بين المناطق، مما يعكس تجذّر الروح الوطنية.
- مثّلت هذه المقاومات امتداداً لسلسلة من الثورات الشعبية التي عرفتها الجزائر منذ بداية الاحتلال.
- مهدت الطريق لظهور مقاومات لاحقة أكثر تنظيماً وشمولًا.
- ساهمت في نقل تجارب المقاومة من جيل إلى آخر، مما حافظ على استمرارية النضال.
- كشفت أيضاً محدودية الوسائل التقليدية في مواجهة جيش حديث، وهو ما دفع لاحقًا إلى تطوير أساليب المقاومة.
- عكست هذه الأحداث تمسّك الجزائريين بقيم الحرية والكرامة ورفضهم للذل والخضوع.
- أبرزت أهمية القيادة والتنظيم في نجاح أو فشل الحركات المقاومة.
- بينت أن القمع والاستبداد لا يمكن أن يقضيا على روح المقاومة، بل يزيدانها قوة وانتشاراً.
- أكّدت أن التضحيات الجسيمة التي قدّمها الشعب الجزائري كانت أساساً لمسار طويل من الكفاح تُوّج لاحقًا بالاستقلال.

وفي الأخير، يمكن التأكيد على أن مقاومتي الزعاطشة والأغواط ليستا مجرد أحداث تاريخية عابرة، بل هما محطتان بارزتان في تاريخ الجزائر المقاوم، تعكسان صمود الشعب وإصراره على التحرر، وتبقيان شاهدتين على تضحياته في سبيل استرجاع سيادته الوطنية.

الملاحق

الملحق الأول: معركة الزعاطشة

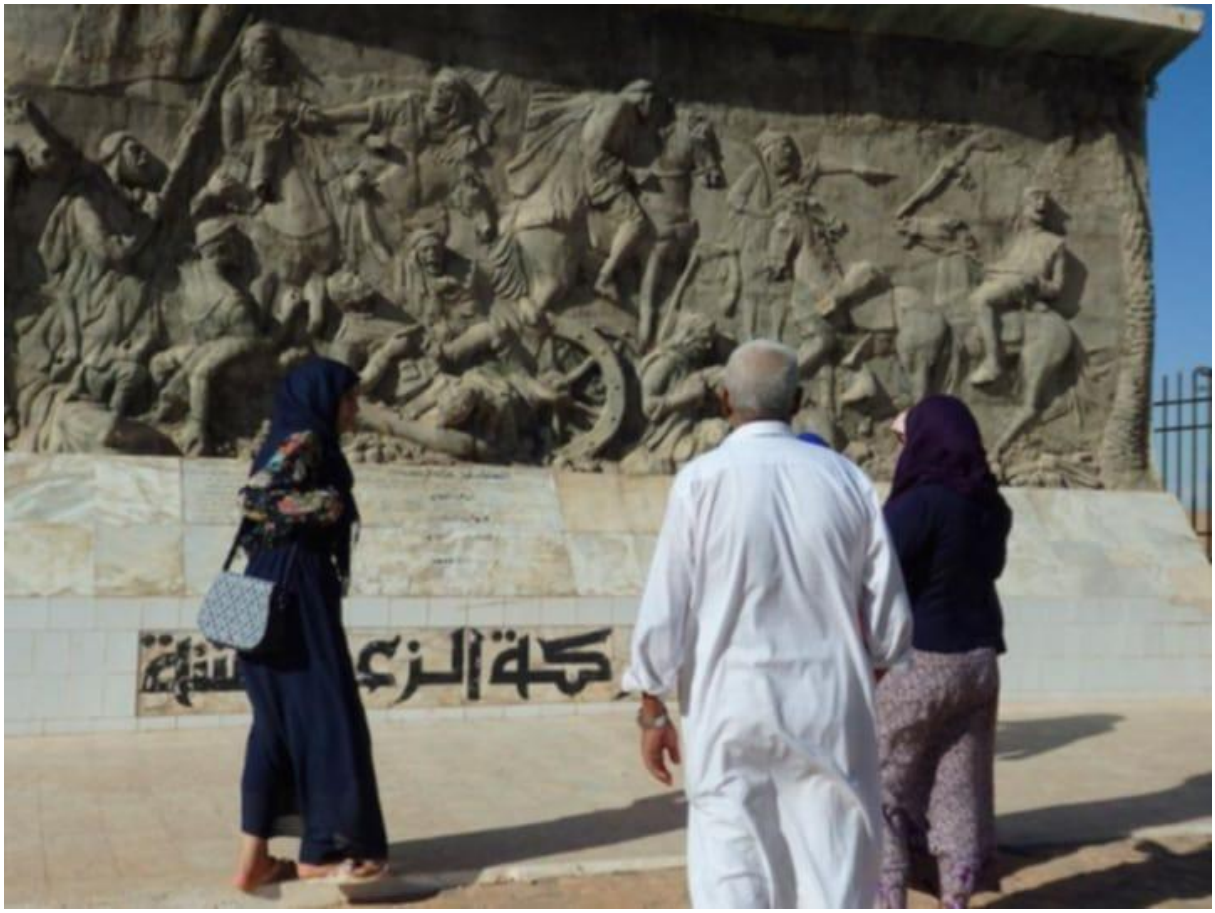

ثورة الزعاطشة

الملحق الثاني: موقع واحة الزعاطشة من بسكرة

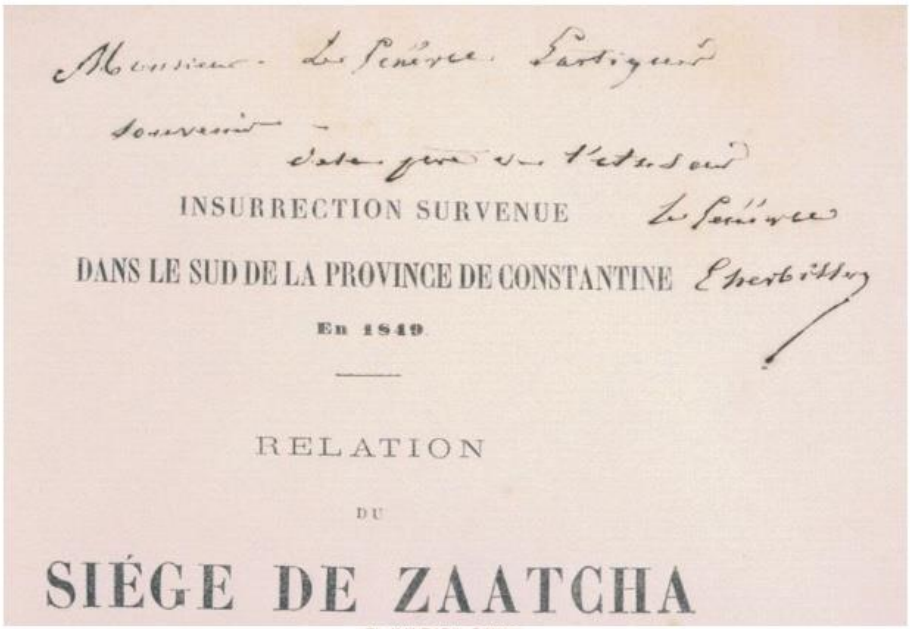

INSURRECTION SURVENUE

DANS LE SUD DE LA PROVINCE DE CONSTANTINE

En 1849.

RELATION

DU

SIÉGE DE ZAATCHA

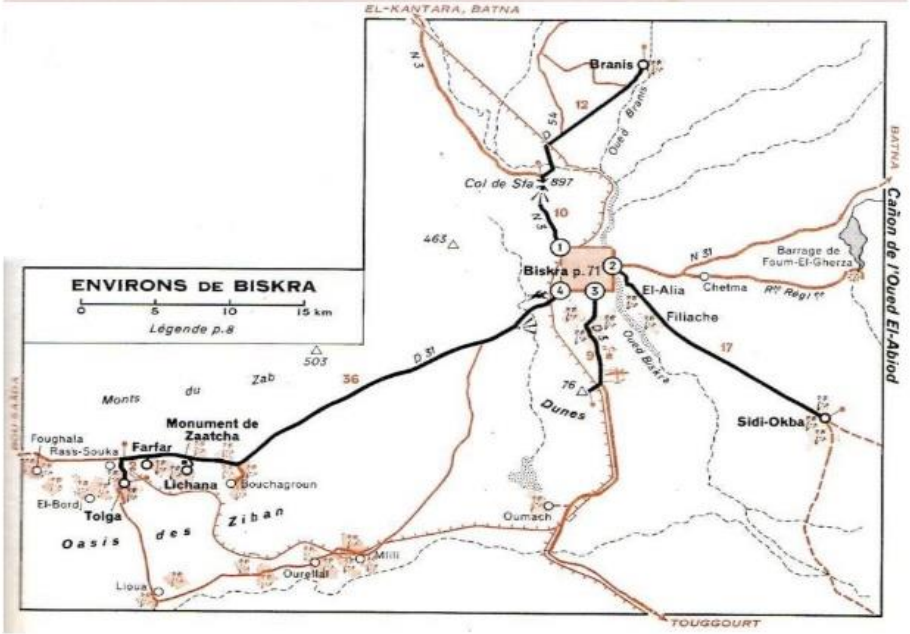

الملحق الثالث: الشيخ بوزيان قائد ثورة الزعاطشة

الشيخ بوزيّان قائد ثورة الزّعاطشة (المتحف الوطني للمجاهد الجزائر)

الملحق الرابع: الجنرال هيربيون قائد الحملة على الزعاطشة

S. Quelques pages d'un vieux cahier, الجنرال هربيون قائد الحملة على الزّعاطشة

Souvenirs du Général Herbillon.

الملحق الخامس: خريطة إقليم بسكرة

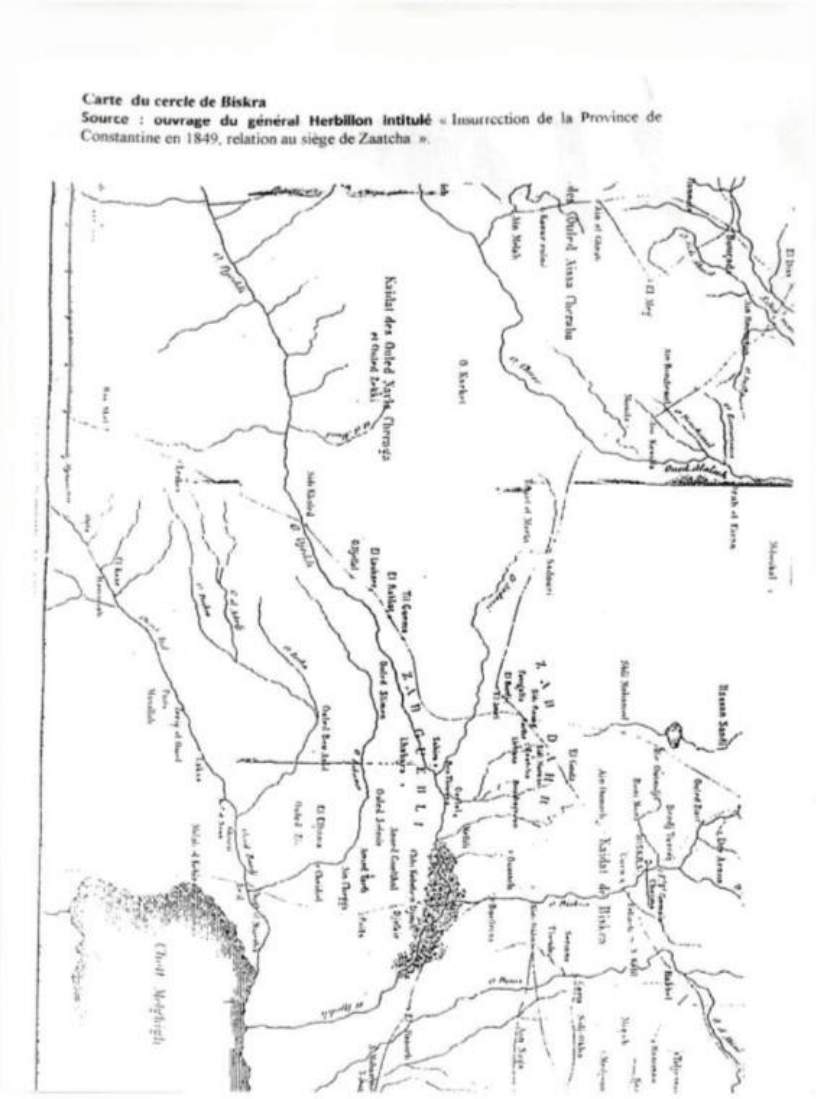

خريطة إقليم بسكرة مصدرها : هربيون، "انتفاضة الجنوب القسنطيني سنة 1849، وقائع حصار الزعاطشة."

الملحق السادس: لوحة تمثل رؤوس جثث كل من الشيخ بوزيان وإبنه والشيخ موسى الدرقاوي

تنكيل المحتلين بالجزائريين

الملحق السابع: مدينة الأغواط سنة 1858 م

مدينة الأغواط سنة 1858 م

الملحق الثامن: عام الخلية

الملحق التاسع: حصار الأغواط

الملحق العاشر: مارشال بيليسيه

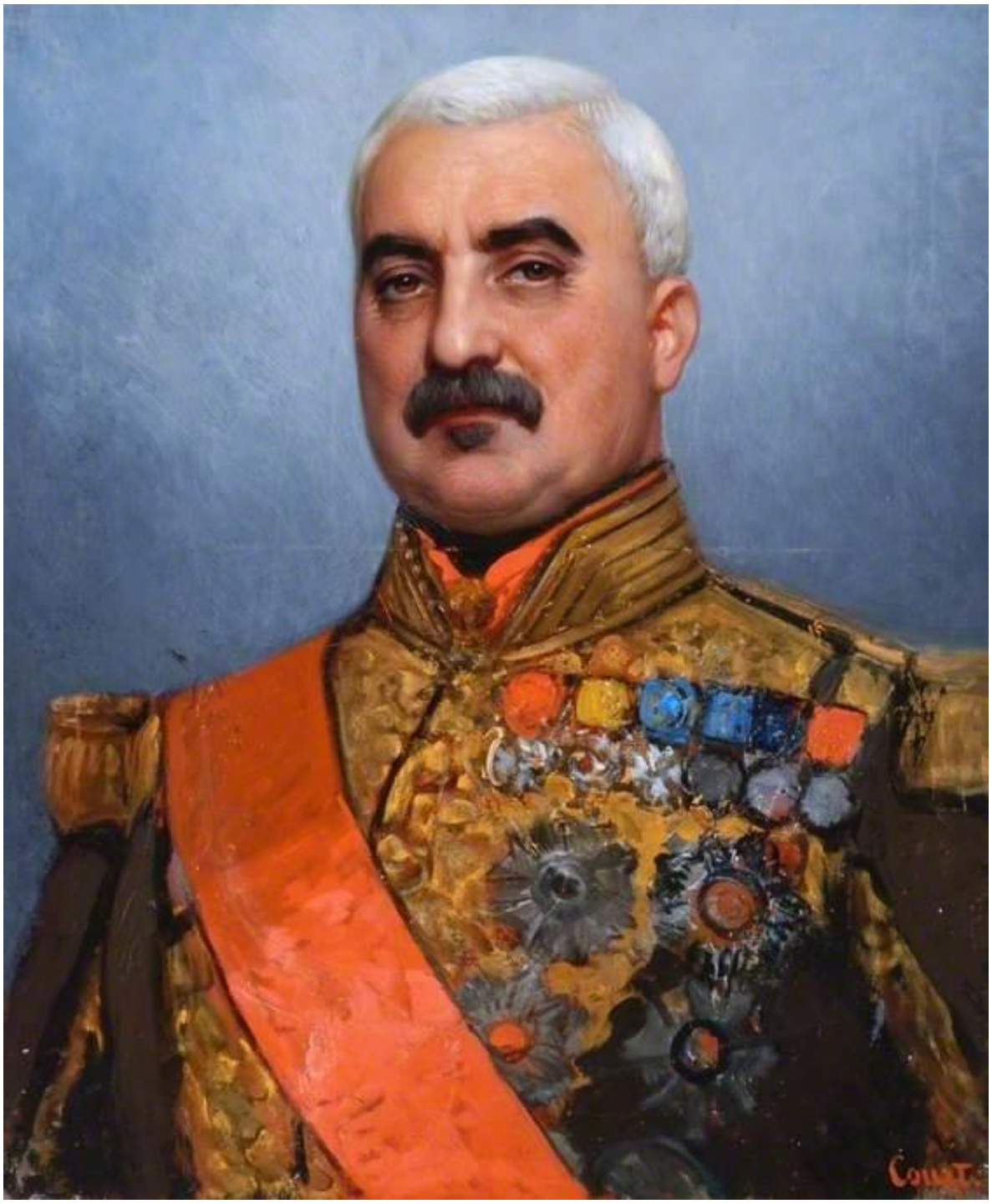

قائمة المصادر
والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولاً :المصادر

1. حمدان خوجة، المرآة، تحقيق محمد العربي الزبيري، ط2، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

2. A.O.M, 10 H 76, Journal des opérations de la colonne expéditionnaire des Ziban, par le colonel Borel de Bretizel, Constantine, 14 novembre 1849.
3. A.M.G, 1 H 131, Rapport sur les opérations de la colonne expéditionnaire des Ziban, Zattcha, 28 novembre 1849.
4. A.M.G, 1 H 211, Histoire de la colonne des Ziban, par le Sergent-Major Ribes.
5. A.O.M, 10 KK 30, Rapport du commandant de la subdivision de Batna, 11 juillet 1850.
6. Journal des marches de la colonne expéditionnaire du Sud, G. Pélissier, A.M.G, décembre 1852.
7. Saint-Arnaud, Lettres du Maréchal de Saint-Arnaud (1832-1854), Paris, 1858.

ثانياً: المراجع العربية

8. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1830–1900، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2007.

9. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.

10. إبراهيم مياسي، من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999.

11. أحمد توفيق المدني، تاريخ الجزائر العام، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

12. إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ط2، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1982.

13. أوعثماني ستار، ثورة الزعاطشة 1849م، ترجمة محمد العربي حرز الله، الجزائر.

14. بشير بلاح، تاريخ الجزائر المعاصر (1830-1989)، ج1، دار المعرفة، الجزائر، 2006.

15. صالح فركوس، إدارة المكاتب العربية والاحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق البلاد (1844-1871)، منشورات جامعة باجي مختار، الجزائر، 2006.

16. صالح فركوس، تاريخ الجزائر ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال (المراحل الكبرى)، دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005.

17. صالح فركوس، مشروع فرنسا الصليبية والمجابهة الإسلامية، دار الكوثر للنشر، الجزائر، 1991.

18. صبحي حموي، المنجد في اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق، بيروت، 2001.

19. .عبد الحميد زوزو، محطات في تاريخ الجزائر، دار هومة، الجزائر، 2011

20. عبد المالك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر 1830-1962، دار هومة، الجزائر، 2009.

21. عميراوي أحميدة، موضوعات من تاريخ الجزائر السياسي، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2003.

22. عميراوي أحميدة وآخرون، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1844-1916، 2009، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر.

23. محفوظ قداش، جزائر الجزائريين :تاريخ الجزائر 1830-1956، ترجمة محمد المعراجي، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، 2008.

24. محمد الطيب العلوي، مظاهر المقاومة الجزائرية من عام 1830 حتى ثورة نوفمبر 1954، ط1، دار البعث، قسنطينة، 1985.

25. محمد علي الطاهر، التعليم التبشيري في الجزائر (1830-1904)، منشورات دحلب، 1997.

26. .محمد الميلي، الجزائر في التاريخ، ج4، دار الهدى، الجزائر، 2007
27. مجموعة مؤلفين، الأغواط عاصمة المقاومة والصمود، دار الهدى، الجزائر، 2010.
28. .يحيى بوعزيز، الثورات الشعبية في الجزائر، دار البصائر، الجزائر، 2009
29. .يحيى بوعزيز، ثورات الجزائر في القرن التاسع عشر، دار البصائر، الجزائر
30. .يحيى بوعزيز، ثورة الزعاطشة 1849، دار البصائر، الجزائر، 2009
31. يوسف مناصرية، مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب 1832-1847، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

ثالثاً :الرسائل الجامعية

1. فريدة قاسي، الدولة في فكر الأمير عبد القادر (1832-1847) رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، 1999.
2. فاطمة الزهراء شبلي، النزعة الثورية وأساليبها الفنية في القصيدة العامة :ديوان مغذي الأرواح ومسلي الأشباح للتومي الحاج سعيدات أنموذجاً، رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2007.

رابعاً :المقالات والدوريات العلمية

1. بن عتو بلبروات، "الاحتلال الفرنسي للأغواط وضواحيها سنة 1853 وجرائمها"، مجلة العصور الجديدة، العدد 06، 2012.
2. جيلالي بلوفة عبد القادر، "المقاومة الشعبية الجزائرية :قراءة تاريخية في أسباب حدوثها وعوامل تواصلها (1830-1916) مجلة الحضارة الإسلامية، العدد 24، 2014.
3. جيلالي حورية، "الإستراتيجية الاستعمارية ضد مقاومة واحة الزعاطشة عام 1849"، 2015، 4، مجلة المرأة.

4. رامي سعيدي، "قراءة في أسباب فشل المقاومات الشعبية في طرد الاحتلال الفرنسي من الجزائر"، قضايا تاريخية، العدد 7، 2007.
5. العربي إسماعيل، "الترتيبات التكتيكية لحصار قرية الزعاطشة أكتوبر–نوفمبر 1849"، 1995، 9، مجلة الدراسات التاريخية.
6. محمود علالي، "التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية (الأغواط أنموذجاً)، مجلة العلوم الإنسانية والحضارة، المجلد 1، العدد 1، 2019.
7. نصر الدين براشيش، "المقاومة في الشعر الجزائري الحديث والمعاصر :ثورة الزعاطشة نموذجاً"، مجلة الحقيقة، العدد 43، 2018.
8. يحيى بوعزيز، "وثائق جديدة حول محاربة الأمير عبد القادر للشيخ التجاني"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 55–56، 1989.

خامساً :المراجع الأجنبية

1. E. Mangin, Notes sur l'histoire de Laghouat, Revue Africaine, 1893.
2. Ginette Aumassip, Trésors de l'Atlas, Alger, 1986.
3. Henri Lhote, Les gravures rupestres de l'Atlas Saharien, Djanet, 1984.
4. Koyne, Le Mzab, Revue Africaine, 1879.
5. L. Le Saint & E. Ardant, Fastes de l'Algérie Ancienne et Moderne, Limoges, 1873.
6. Louis Rinn, Marabouts et Khouans: Étude sur l'Islam en Algérie, Alger, 1884.
7. Monographie de Biskra et du Sahara de Constantine, Bulletin de la Société Géographique d'Alger et de Constantine, 1921.
8. Nil Joseph Robin, Histoire du Cherif Bou Barla, Alger, 1884.
9. Paul Azan, Conquête et Pacification de l'Algérie, Paris.
10. Paul Gaffarel, L'Algérie Conquise depuis la prise de Constantine jusqu'à nos jours, Paris, 1886.
11. Pelissier de Reynaud, Annales Algériennes, Paris.
12. Pein M. Th., Lettres Familières sur l'Algérie, Paris, 1871.
13. Pierre Albin, Les grands traités politiques de 1815 à 1914, Paris, 1923.
14. SEROKA, Le Sud Constantinois de 1830 à 1855, Revue Africaine, 1912.